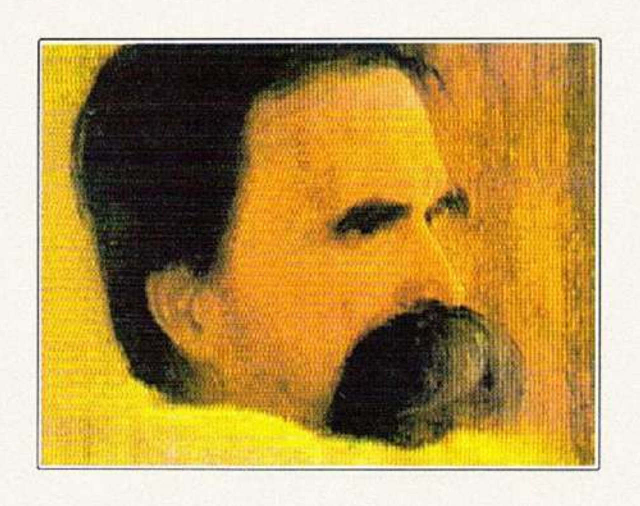
بيتر سلوتردايك

«الإنجيل» الخامس لنيتشه



ترجمة: علي مصباح

منشورات الجمل


mohamed khatab

بيتر سلوتردايك

«الإنجيل» الخامس لنيتشه

ترجمة: علي مصباح

منشورات الجمل

بيتر سلوتردايك استاذ علم الجمال في جامعة كارلسروهه. أثارت مؤلفاته، الأخيرة خصوصاً، الكثير من الجدل في الأوساط الفسلفية الألمانية والأوروبية. من مؤلفاته: الشجرة السحريّة، ولادة التحليل النفس (١٩٨٥)، المفكّر على الريح (١٩٨٦)، التاوية الأوروبية (١٩٨٩)، نقد العقل الصلف (١٩٨٣)، مجالات (١٩٩٨).

ولد علي مصباح عام ١٩٥٣ في مدينة زغوان – تونس. درس علم الاجتماع في جامعة السوربون، باريس الخامسة. عمل لسنوات في التعليم بتونس. نشر العديد من الترجمات والأعمال الأدبية في المجلات والجرائد العربية، كما نشر قصصاً تُرجم البعض منها الى الفرنسية. يقيم ويعمل اليوم ببرلين.

بيتر سلوتردايك: «الإنجيل» الخامس لنيتشه، ترجمة: علي مصباح

الغلاف: رسمة لهانس أولده

Peter Sloterdijk: Über die Verbesserung der guten Nachricht.
Nietzsches fünftes »Evangelium«

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

ساهمت مؤسسة انترناسيونس في بعض تكاليف هذه الترجمة

كلمة توطئة

كانت الذكرى المئويّة الأولى لوفاة نيتشه (صائفة سنة ٢٠٠٠ مناسبة لعودة الجدال ذاته حول هذا الكاتب الفيلسوف اللغز الذي ما فتئ يقلق الفكر ويستفزّ التساؤلات ويستدعي شتّى الإنفعالات منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر إلى اليوم. استقبلت ألمانيا القلقة بالوِزر الثقيل لتاريخها القريب هذه الذكرى مثل ضيف محرج لا تعرف كيف تتصرّف حياله، أو دائن لم يسدّد دينه بعد، ولم يعترف له بعد بهذا الدَّين. هكذا هو نيتشه بالنسبة للضمير الألماني منذ نهاية الحرب العالميّة الثانية: مدان بالنسبة للبعض، مشارك أو متواطئ في فعلة شنيعة لم تمح السنون بعد آثارها، دائن بالنسبة للبعض الآخر، معتدىً عليه، متعسّف عليه ومنهوب عنوة واغتصابًا. داخل هذه الزوبعة المتضاربة يتدخّل بيتر سلوتردايك مرّة أخرى ليعرض بعض الجوانب من عمل نيتشه وشخصه تحت إنارة

مختلفة: نيتشه «الواهب» «المبذّر»، المبدّد الذي يستفزّ السخاء، نيتشه الشبيه بشمس الظهيرة التي تلهب وتبهر لا لشيء إلاّ لتذكّرنا بالطاقة اللامتناهية التي تؤسّس الحياة؛ الحياة الواهبة، المحتفية بسخائها إثباتيًا حتّى وإن بدت الإنارة مبهرة حدّ الإعماء، والحرارة متأجّجة عدوانيّة حدّ القتل. الشمس لا تتباهى لمجرّد رغبة في المباهاة، بل هي تستنفد طاقتها لتكون الطاقة في كلّ شيء. ونيتشه يتباهى ويعنّف لكنّه لا يردّ أحدًا، بل ينهض بحثا عن «المستغيث» في الغابة وبين الأودية، ويدعو إلى مغارته كلّ اللائذين به: «الملوك»، و«الساحر» و«المتسوّل الطوعيّ»...

«المبذّر بألف يد»، المبدّد الواهب دون تردّد أو حساب هو الشاعر الذي يستهلك نفسه حتّى القطرة الأخيرة ولا يطلب مقابلا أو مردودًا: لا شيء سوى «مجرّد أحمق! مجرّد شاعر!/ لا هو أخرس، لا متصلّب، لا ناعم، ولا هوبارد،/ لا محوّل صنمًا،/ ولا هو عمود منصوب للآلهة /....لا، بل عدوّ لكلّ أصنام الحقيقة!» كيف يمكن له أن يكون مؤسّسا لمذهب أو مدرسة أو «كنيسة»؟ من أين له أن يكون معلّما

هــو الـذي يـكـره المعـلـّمين والمدارس ويـنـبـذ الـتـلامـذة والمريدين ويطردهم من حوله بل ويدعوهم إلى التمرّد عليه والتنكّر له: «وفي الحقيقة أنصحكم: تخلّوا عنّي وتمرّدوا على زرادشت! بل وأكثر من ذلك عليكم أن تشعروا بالخجل من أجله، فلعلّه قد خدعكم!»... «وإنّها لطريقة بائسة في مكافأة معلّم أن يظلّ الواحد مجرّد تلميذ.» إنّه لا يريد أن يكون معلّما ولا يرغب في تلامذة وأقلّ من ذلك في أناس يحوّلون فكره إلى عقيدة دوغمائيّة («احذروا أن يقتلكم صنم ما») أو منظومة إديولوجيّة يتهافت عليها المتعطّشون للسلطة المشحونون بالضغينة والنزوع إلى الإنتقام؛ أعداؤه الألدّاء الذين يسمّمون كلّ نبع: «إنّ الحياة نبع فرح فيّاض، لكن حيثما يكرع السفلة والغوغاء تتسمّم كلّ الآبار.» ولأنـّه ليس هناك غير «الرعاع من فوق والرعاع من تحت» فإنّه يتحصّن بالإحتقار، بالغابة والكهف وقمّة الربوة: «أدرت ظهري إلى الحاكمين عندما رأيت ما الذي يسمّونه اليوم حكمًا: السمسرة والمساومة على السلطة – مع الغوغاء.»

لذلك فإنّ كلّ توظيف لنيتشه وفكره في أيّ اتجاه وضمن أيّة منظومة سواء من قبل السياسيّين أو أيّة مدرسة فكريّة متأسّسة في اليقين والثبات ليس سوى عمل سطو واغتصاب. ولكم هو كبير الإغراء الذي ما ينفكّ يساور المثقّف المتكئ على الهدوء الراكن إلى الراحة داخل المؤسسات والمنظومات لتحويل الأفكار إلى كنائس، لأنّ للمعرفة قساوسة – أولئك الذين يمقتهم نيتشه ويشهّر ببرودتهم – يعتقدون دومًا في إمكانيّة تطابق الفكر مع الواقع، أو إمكانية تطبيقه عنوة وتعسّفًا على الواقع، وإذا هم يجرّون الواقع والفكر معًا إلى الهلاك. هذا هو ما يريد بيتر سلوتردايك تعريته من خلال هذا النصّ القصير المكثّف: تعرية الحيل التي تحوّل الفكر من طاقات ملتهبة بالمشاغبة والمناوشة والتنطّع مغتذية من الحيرة والسؤال الدائم والمغامرة الفرديّة إلى منظومة متأسّسة ومكتملة، واثقة ويقينيّة: أي إلى تعاويذ لدى البعض، وإلى أدلوجة تصلح للتطبيق في المجال السياسي والواقع الإجتماعي لدى البعض الآخر. تلك هي محنة نيتشه.

سلوترديك الذي ينفض الغبار عن نيتشه اليوم هو هذا الفيلسوف الألماني الذي غدا مزعجًا ويدور حوله – معه الآن جدل ساخن حاد ومنفعل في بعض الأحيان. هو أيضًا مناوش ومشاغب؛ كلبيٌ يقتفي آثار نيتشه كما كان هذا الأخير يقتفي آثار ديوجانس. بعد مؤلّفه الشهير «نقد العقل الصلفيّ»* انطلقت الجدالات الساخنة التي واجهت بينه وبين جماعات «النظريّة النقديّة» وبالخصوص يورغن هابرماس –الذين يصنّفهم ضمن دائرة «الوعي التنويري الزائف» كنوع جديد من الفكر الإضطغاني الإرتكاسيّ الذي يلهث وراء الواقع محاولا تفنيده والإفتراء عليه، أو إخضاعه إلى نظريّاته ذات الطابع الكتبي النخبويّ المتعالي. إنّه اليوم لا ينفض الغبار عن نيتشه ليحييه كصنم أو مدرسة، بل كفيلسوف بمعنى «محبّ الحكمة» العاشق المورّط حدّ الفناء في عشقه، وكآلية تفكير متحرّرة من كلّ المدارس والمنظومات، آلية تغتذي بالأسئلة والحيرة وتنفق كلّ طاقاتها في بعثرة القيم واليقينيّات، محتفية بحرية الفرد كمدى لا متناه من احتمالات الخلق

* Peter Sloterdijk, "Kritik der zynischen Vernunft", Suhrkamp Verlag. Frankfurt am Main, 1983

و«الإستجابة الإثباتيّة» للحياة. سلوتردايك يحفر عن الأسئلة الأولى التي كانت وما زالت تشاغب داخل النصوص، يحثّ عنها غبار الإبتذال الناجم عن التداول التعاويذي التهليلي، ويفركها كيما تشعّ من جديد ببريق بهجتها الإستفزازيّة الأولى – استفزازيّتها البهيجة العابثة التي تظلّ تورّط القارئ المتنبّه والمفكّر الذي لا يغفو في اليقين داخل دوّامة التساؤل الدّائم. لا التساؤل حول العالم والمجتمع والعلاقات السياسيّة والإجتماعيّة فحسب، بل حول الفكر والمفكّر وعلاقته بنفسه وبحرّيته وفرديّته وتفرّده في المقام الأول. عندما تفتر جفوة الأسئلة وتهدأ حدّة القلق، تُحنّط النصوص ويتراجع التفكير حتّى وهو يتظاهر بتلميع سحنته بترديد المقولات الأكثر بريقًا. نصّ بيتر سلوتردايك هذا الذي بين أيدينا قد نجح في تجسيد جانب واحد على الأقلّ من الذهنيّة النيتشويّة: الإستفزاز. إنّه يستفزّنا لإعادة قراءة نيتشه كمبذّر طوعيّ.

المترجم

كيف يمكن الحديث عن فريدرش نيتشه - اليوم؛ في عام ألفين، وفي الذكرى المئويّة لوفاته الجسديّة التي افتتحت بها الألفيّة الأولى لتأريخ جديد كان يعتقد أنّه سيبدأ العمل به انطلاقًا منه هو؟ هل ينبغي علينا أن نقول بأنّه يمثّل الآن أمام أعيننا معذّبًا وعظيما هو أيضًا، تمامًا مثل ذلك القرن الذي انتمى إليه بكلّ سنوات عمره، ومنه غادر الحياة باتجاه الخلود الذي يكلل مشاهير الكتّاب؟ هل ينبغي علينا أن نجاريه في حكمه القائل بأنّه لم يكن إنسانًا، بل عبوة ديناميت؟ هل ينبغي علينا أن نؤكّد مرّة أخرى على الغرابة التي ميّزت «التأثير التاريخي» الذي كان له: بحيث لم يكتب لأحد غيره إلى حدّ الآن أن يظلّ يعبّر بنجاح عن التميّز والتفرّد، وينجح في استقطاب الخساسة والغوغاء؟ هل ينبغي أن نشخّص الحالة على أنّه كان الشخصيّة التي استقرّ معها عهد النرجسيّة التي ستتجسّد فيما بعد في «ثورة الجماهير»، ثمّ في شكل «السياسة

العظمي» للكليانيّة الإشتراكيةً، وأخيرًا في دكتاتوريّة السوق الشموليّة؟ أم ترى علينا أن ندع كل التعليقات جانبًا ونكتفي بقراءة نيتشه، وإعادة قراءته؟

إنني، أيها السيّدات والسادة، أريد أن أتطرّق إلى الحدث النيتشويّ ككارثة في تاريخ اللغة، وأن أقيم الدليل على الأطروحة القائلة بأنّ تدخّله الأدبيّ كصاحب إنجيل جديد يتجلّى بمثابة حزّ في نظام التفاهم الأوروبيّ القديم. وأنا أعتبر، مثل مارشال مك لوهان، أنّ صيغ التفاهم بين البشر داخل المجتمعات تنطوي – وبخاصّة من حيث طبيعتها وتأثيراتها – على بعد بلاستيكي محايث؛ إنّها تمنح المجموعات البشريّة النغمة الإطنابيّة التي تهتزّ على إيقاعها، كما تحدّد الإيقاعات والأشكال التي تتعرّف تلك المجموعات على نفسها فيها، وبموجبها يتسنّى لها أن تكرّر نفسها بشيء من المطابقة الدائمة لذاتها، وهي أيضًا التي تولّد الإجماع فيما هي تعزف لتلك المجموعات مقولة العود الأبديّ للأشياء ذاتها كترتيل قدسيّ. إنّ اللغات عبارة عن مجموعة من آلات جماعيّة نرجسيّة لا تعزف إلاّ

بـهـدف تـعـديـل الـعـازفين وإعـادة تـعديـلهـم؛ إنـهـا تجعل متكلَميها يترنَمون بالنبرات الخاصّة للإستثارة الذاتيّة. منظومات أنغام تعارفيّة مميّزة، هي التي تشكّل في أغلب الأحيان مجمل الإرسال في عمليّة التواصل، وهي بالتالي لا تُستعمل للوظيفة البدائيّة المتعلّقة بمجرّد إيصال المعلومات، كما يروج الإعتقاد حاليًا، بل تشتغل في خدمة تشكيل تلك المجموعات المتواصِلة فيما بينها.

إنَ البشر يستخدمون اللغة للتعبير عن تفوّقهم – بل لنقل للتعبير عن المزيّة الكبرى التي لا تضاهى والمتمثّلة في امتلاكهم لإمكانيّة التعبير بلغتهم الخاصّة عن مزاياهم وتفوّقهم. وهم في أغلب الحالات ليسوا منشغلين بمجرّد إخبار بعضهم البعض بوقائع الأمور بقدر ماهم منصرفون إلى استعمال تلك الوقائع في بناء مجدهم الخاصّ. التجمّعات اللسانيّة، والقبائل والشعوب وحدات متخيّلة تستعمل لهجاتها المتميّزة كورقات رابحة في لعبة نفسيّة – اجتماعيّة تنزع من خلالها إلى التفوّق. وفي هذا الإطار يغدو كلّ متكلِّم (بفتح اللام) – وقبل أن يتحوّل

إلى خطـاب تـقـنـي عمليّ – عـامل ارتـقـاء وتمـجـيد ذاتـي للمتكلِّم (بكسر اللام). حتّى الخطاب التقني ذاته يظلّ، وإن بطريقة غير مباشرة، مطالَبا بخدمة سمعة التقنيّ المتحدّث به. ولا تشذّ عن ذلك لغة النقد الذاتي التي ستكون هـي الأخرى محمّلة بوظيفة التمجيد الذاتي؛ المازوخيّة ذاتها تظلّ تعلن تكريس الضحيّة. إنّ كلّ مستعمل للغة بحسب الوظيفة النرجسيّة البدئيّة التي تتأسس عليها يظلّ دومًا يردّد عبر خطابه هذه المقولة: إنه ما من شيء في الدنيا أفضل وأحبّ لكلّ متكلِّم من أن يكون هو هو، أو هـي هـي، وأن يستطيع من ذلك الموقع أن يثبت بلغته الخاصّة الإمتياز المتمثّل في كونه يقطن داخل هويّته.

تجدر الملاحظة هنا أنّ النرجسيّة البدئيّة لم تكن من وجهة نظر تاريخيّة لتتجلّى في البداية إلاّ لدى التجمّعات الإثنيّة والممالك، قبل أن تتحوّل مع مطلع العصر الحديث إلى معلم مميّز لأمم مهوسة بالتسلّح ومتقوقعة على التحجّر الكلاسيكي. أمّا في ما يتعلّق بالفرد فإنّه كان عليه أن ينتظر طويلا قبل أن يرى الإعلان الإثباتي للذّات

Selbstbejahung يتخلّص من ربقة الخطيئة التي كانت تجثم عليه بظلّها الثقيل، كي يبرز من بعدها في هيأة amour-propre [١]، خلال القرن الثامن عشر، وكوَلهٍ ذاتيّ مقدّس في القرن التاسع عشر، وكافتتان نرجسيّ في القرن العشرين، ثم كتصميم ذاتي Selbstdesign في القرن الواحد والعشرين. لقد كان نيتشه بالفعل المنظّر اللغوي الحداثيّ الوحيد الذي نجح في التقاط هذه العلاقة الأساسيّة عندما أكّد ضمن هذا الإستنتاج المستنبط من التعاويذ الصادرة عن لجّة حماسة والنخوة الذاتيّة لدى شعب واع بذاته: «إنّما هو (الإنسان) يُسقط افتتانه بذاته... يُسقطه على كائن يدين له المرء بالشكر... الإنسان مدين بالإعتراف بالفضل لنفسه، وبهذا الغرض بالذات فهو بحاجة إلى إله.» ذلك ما كان قد عبّر عنه في مناسبة سابقة بقوله: «إنّها لحماقة جميلة صنعة الكلام هذه؛ بواسطتها يمكن للإنسان أن يرقص فوق الأشياء.» ستلعب اللغة في عمليّة إعادة تشكيل الشعور

(١) كلّ [illegible] التعبيرات الواردة باللغة الفرنسيّة والأنكليزيّة واللاتينيّة، والمكتوبة بالخط [illegible] جاءت هكذا في النصّ الأصلي. أمّا بعض العبارات أو المصطلحات [illegible] باللغة الألمانيّة فقد تعمّدت إيرادها باللغة الأصليّة للنصّ إلى جانب [illegible] المعرّبة أو المعادلة لها في العربيّة التي تبدو لي في مثل هذه الحالات [illegible] و لا تفي تمامًا بالمعنى الذي تفيده في الألمانيّة.

الديني المتأسّس على الإعتراف بالفضل للذات دور الوسيط الذي يبتدعه المتكلّم من أجل التعبير عن سموّه على أشياء العالم. من هنا يغدو التصريح المثبِت للنظام التعايشي للمتكلّم modus vivendis أهمّ فعل قول على الإطلاق؛ الفعل الإمتداحي بامتيازٍ ar excellence. وعبر عمليّة التحويل هذه التي طرأت على نظام الأهميّة سيقع تأوّل كل من الكلام والصمت على أنّهما شكلان لحماسة تمجيديّة تقرّ بنفسها؛ في كلتا الحالتين يتجلّى الإعلان الذاتي عن الرضا عن النفس في مجال نزوعها إلى إثبات الكينونة: في حالة الكلام كتجسيد للحقّ والطاقة، وفي حالة الصمت كتعبير عن الحقّ في الركون إلى الراحة والهدوء في ظلّ شروط وجود لا تحتاج إلى تبرير.

إنّه لمن البديهي إذن، أيّها السيّدات والسادة، أن تتعارض هذه الإشارة الأوّليّة إلى لغة الإحتفاء، أو لغة إثبات الذات، منذ البداية بشدّة مع مجمل ما قيل وكتب خلال القرن العشرين من تنظيرات وأفكار متداولة communis opinio بخصوص اللغة، سواء عبّرت هذه

المقولات عن نفسها كنقد إديولوجي أو كفلسفة تحليليّة، كنظريّة للخطاب أو كتحليل نفسيّ، ك BEGEGNUNGSLEHRE أو كتفكيكيّة. ففي الحالة الأولى وقع اتّهام لغة البرجوازيّة بالتعميميّة الخادعة، وفي الثانية أعيد إسناد الأولويّة للإستعمالات العاديّة للغة على حساب التحريفات الميتافيزيقيّة، وفي الحالة الثالثة وقع ربط تصرّفات العلوم في اللغة بالروتينات الخاصة بالسلطة، وفي الحالة الرابعة أُفرغت العلامات من محتواها بتحويلها إلى أوعية لتعبيرات لا واعية، وفي الحالة ما قبل الأخيرة يوصف الحدث اللغوي كجواب بموجبه أستطيع تلبية نداء الآخر الذي يطلبني بدافع الحاجة وبالتالي أفسح له مجالا للإقتراب، أو أمتنع عن الإستجابة لندائه، بينما تتّهم اللغة في الحالة الأخيرة بالفشل الدائم في جعل المقول يحيط بالمعنى كليّا ويحتويه. وفي كل الحالات يقع فهم اللغة كوسيلة تعبير عن النقص والتشويه، وبصفة محتملة أيضًا كأداة لتصعيد الهشاشة المفرطة، وكوسيلة للتعويض ولجبر الإنكسارات والمعالجة النفسيّة. هكذا تبدو

اللـغـة وكلّ مـقول في كلّ الأوضـاع مـثل عَرَض مـرضـي وإشكـال، وإذا مـا حصـل أن وقـع التـطرّق إليـهـا كـحـامل للإثبات والبشرى – وهو أمر نـادر– فإنّما من أجل إثبات الطابع المزيّف والمفلس للنبرات الإحتفاليّة ذات الوعود المتعدّدة. وبذلك يغدو كلّ متكلّم ضمن هذه الشروط – بـورجـوازيًّـا صـغيرًا كـان أو سيـاسيًّـا، أكـاديميًّـا، قـانـونيًا، محلّلا نفسـانيًّا – في وضع المُدان الذي يظلّ يركض ويلفّ دون جـدوى في مـتـاهـة التـعليـلات والمبرّرات بـحـثًـا عن وسـائل لتغطية تصريحـاته التي لا تستند إلى رصيد وتعديل وضعيّة حساباته؛ من يتكلّم يورّط نفسه في الدَّيْن، ومن يواصل الكلام لا يفعل سوى محاولة تسديد ديونه. ووفقًا لـهـذه الـرؤيـا ستربّـى أذن المستـمـع علـى عدم إسنـاد أيّـة مصداقيّة للكلام، وعلى تبرير شحّها هذا على أنّه عين الوعي.

إنّني سآخذ على عاتقي في هذه المحاولة تبنّي فكرة نيتشه حول اللغة – تلك الفكرة التي لم يتجاوز هو نفسه حدود وضع الخطوط الأوليّة لها – بغية الإنطلاق بها من

الوضع الذي هي عليه في الفكر المعاصر باتّجاه الإمتداد بها وتطويرها في المستقبل، الأمر الذي سيجعلني أتحمّل تبعات إعتبار مقولة نيتشه «إنّ مجمل فلسفتنا هي عمل تعديل لاستعمالنا للغة» تحمل من المعاني ما يتجاوز مجرّد المقاربة النقديّة.

I كتابات إنجيليّة

لا بدّ في البدء من العودة قليلا إلى الوراء لكي نتوصّل إلى فهمٍ أدقّ للشروط اللغويّة الحديثة على ضوء ما كانت عليه في عصر ما قبل الحداثة. بمجرّد أن تبلغ الثقافات مرحلة التطور الملكيّ – أقول هذا دون إيمان خاصّ بالنظريّة السوسيولوجيّة الدوغمائيّة القائلة بالإرتقاء والتطوّر– تكفّ طاقة المدح الذاتي للغة، كما لو بمجرّد قانون بديهيّ، عن الإحالة على الأعوان المتكلّمين المتخصّصين في وظائف الكلام مثل كبار القوم، والكهنة والقصّاص، وتتخذ طريقًا ملتوية تمرّ عبر مديح الأسياد والأبطال والآلهة وذوي السلطان وأصحاب الفضائل لتنعكس من خلالهم وبصفة غير مباشرة على المتكلّمين أنفسهم. لقد تلقّى شعراء العهد الإقطاعي وممتهني القول البليغ تكوينهم داخل منظومة البلاغة الفخريّة غير المباشرة، وكانت مهنتهم تقتضي أن يكونوا عارفين بالآليات التي

تتكوّن وفقا لها حلقات الحماسة والنخوة حيث يحتلّ الممدوحون مركز الدائرة، بينما يقف المادح على التخوم. لقد كانت لباقتهم تقتضي أن يحطّوا من قيمتهم الخاصّة من أجل خلق المناخ اللائق بذلك الفضاء الخاص الذي يشتغلون داخله. وطبقًا لما كانت تقتضيه مقاييس الثقافات العليا القديمة من نبذ للتعبيرات المباشرة عن أنا-نيّة المتكلّم سيبتدع هؤلاء طرقًا أخرى لتصريف النزوعات النرجسيّة البدائيّة؛ طرقاً تريهم كيف يمكنهم عبر الإلتزام بواجب التعبير عن إعجابهم بالآخرين من الأكابر أن يجعلوا أنفسهم قريبين من أولئك المتقبّلين للمديح.

ليس هنالك من مجال يسمح بدراسة هذا الأمر بطريقة واضحة مثل الأنْجلة المسيحيّة في سطوها على منظومة التفاهم والتواصل لمجتمعات أوروبا العصر الوسيط. هنا تتجلّى بكلّ وضوح الطريقة التي تسنّى بها للقول الإنجيلي – التبشير بالخلاص عن طريق ابن الله والعهد الذي أُخذ عن مجموعة أثنية بالإنضواء اللامشروط إلى دائرته – أن

يقحم بالمتكلّمين والمستمعين على حدّ سواء داخل حلقة الإهتزاز النشواني التي لا يشغلها شيء سوى الإحتفال بالمجد المتقاسم بين أعضائها. لقد أعطى أوتفريد فون فايسنبورغ الكاهن الشاعر الراينفرنكي من القرن التاسع في كتابه المسمّى بـ الكتاب الإنجيلي تبريرًا لعمليّة إعادة كتابة الإنجيل باللغة الشعبيّة لقومه محتجًا بأنّه قد أصبح الآن في إمكان الفرنكيّين أيضًا أن يكون لهم نصيبهم من التمتّع بحلاوة الرسالة السعيدة، dulcedo evangelorium ، بفضل كتاب مقدّس مشعْرن بلغتهم.

«بما أنّ العديد من الناس قد عمدوا إلى الكتابة بلغاتهم الخاصّة،

والكثيرون يجتهدون في امتداح كلّ ما هو عزيز عليهم،

فلِمَ يظلّ الفرنكيّون لوحدهم يجفلون

من محاولة أن يلهجوا بالثناء على الله بلغتهم؟»

«... إنّ الثناء على الله يمنحك حلاوة، وبه تغدو لغة الفرنكيين خاضعة للإيقاع والوزن

وانتظام البيت الشعري؛ وهكذا سيتكلّم الله ذاته

من خلالك (so ist gotes selbes brediga ...).»

(Liber evangeliorum, I, I, V. ١٣–٤٣: ١٤–٢٤)[٣]

إن الدلالة من هذا الكلام الذي يعدّ غريبًا في ذلك الزمن، تكمن في العمليّة الإثنو- نرجسيّة التي ستساعد الفرنكيّين على نحت كيان لهم متأسّس على نخوة جماعيّة تكون في مستوى السمو الذي تمنحه التقنيات اللغويّة لذلك الوقت، طموحهم في ذلك أن يرتقوا بأنفسهم إلى مستوى الأمم التاريخيّة الكبرى من الإغريق والرومان، أو إلى منزلة أرقى. إن الإنجيل الشعري المكتوب باللغة الألمانيّة يطرح نفسه كعمليّة هجوميّة باتجاه تأسيس نظام أبّهة سياسي ديني يسعى عن طريق مجهود تدارك إضافيّ في مجالي الوزن والقافية إلى الإلتحاق بدائرة الفنّ الشعري وبلوغ أقصى ما يمكن أن يُتوصّل إليه في هذا المجال. هذه الطريقة ستمكّن منذ تلك اللحظة من إنجاز الربط، بحسب ما تقتضيه فعاليات العصر، بين التمجيد الإلهي وشعر المديح الإمبراطوريّ ضمن الصورة المجسّدة للـ«مجد الفرنكي»

.gloria Francorum ووفقا لهذه الذهنيّة يعمد أوتفريد ضمن إهداء الكتاب للودفيك الألماني إلى إعلان المماثلة بين هذا الأخير والملك داود – هنا أيضا تنسرب داخل القول وظيفتان مدحيّتان جنبًا إلى جنب ضمن مفعول تمجيدي واحد: مدح ملك والثناء على شعب. إنّ أوتفريد مقتنع بأنّه بهذه الطريقة لا يفعل سوى الخضوع إلى ماهية اللغة بما هي أداة تمجيد ومديح – أمر يبدو لي مبرّرًا ومقنعًا جدًّا في ما يخصّ الثناء على الله: «إنّه هو (الله) الذي منحكم (الشعوب) أداة الكلام plectrum linguae كي تصدحوا عن طريقها بالثناء عليه.» (إهداء إلى ليوتبرت). من يمدح يغدو بدوره جديرًا بالمديح بما هو مساهم في تلميع سحنة موضوع المديح. هذه الفكرة نفسها يعبّر عنها الشاعر في الإبتهال الإفتتاحي للملحمة الإنجيليّة:

«أنت وحدك ربّ كلّ ما يوجد من اللغات

... سلطانك هو الذي منحهم جميعًا مَلَكة اللغة،

هكذا غدا بإمكانهم – يا للنعمة! – أن يصقلوا كلمات من لغاتهم،

كي يذكروا إسمك، ويثنوا عليك إلى الأبد،
كي يتعرّفوا عليك، وينصرفوا إلى خدمتك.»
(libre evangeliorum, I,2, V. 33-38)

الجدير بالملاحظة في هذا الدعاء لا يتمثّل فقط في كون معرفة الله قد غدت في خدمة الوظيفة المدحيّة، بل في جعل لغات الشعوب كلها وسائط للنرجسيّة الإلهيّة. هذه النرجسيّة تمرّ عبر السبيل المنعرجة لقنوات التعبير البشريّة لتعود إلى ذاتها ضمن احتفاء ذاتي لا ينقطع. فالمديح يغدو مستساغًا إذا ما تعلّق الأمر بالله. إنّ كنه اللغة هو الذي يفترض هذا الإحتفاء: كلّ لغة تغفل عن الإحتفال تتخلّى عنها روح الخير. الأمر الوحيد الذي يبدو مزعجًا في هذه التلفيقة اللغويّة اللاهوتيّة هو أنّه سيتم امتداح الله والإحتفاء به بواسطة اللغة الألمانيّة القديمة؛ بـ lingua agresti لهجة فلاّحين لا تفي بعد بالشروط النحويّة والإيقاعيّة للمستوى اللغوي الذي تفترضه المكانة الإلهيّة. كان على أوتفريد إذًا أن يشحذ كلّ ما لديه من نخوة فرنكيّة

كي يمنح نفسه الشجاعة الكافية لتمجيد الله بلهجة جنوب الراين الفرنكيّة. وبما أنّه لم يكن ليخطر له على بال البتّة إدخال تعديلات وإصلاحات لغويّة على الإنجيل نفسه، فإنّه ستتراءى له بوضوح ضرورة إجراء تحسينات شعريّة على منظومة العبادات الشفهيّة للإرتقاء بها إلى مستوى القدرة على صياغة القول الإنجيلي - رؤية نتجت عنها إحدى أهمّ جهود الإبداع اللغوي قبل ترجمة الكتاب المقدّس التي قام بها لوثر فيما بعد. لكن لنلاحظ أنّ أوتفريد لم يشعر بحاجة إلى تبرير ما عندما أقدم على مشروع تحويل أناجيل كنائسيّة إلى ضرب من العمل القصصي موحّد ومتّصل. وفي عصر لم يكن فيه تعميم قراءة الكتاب المقدّس مسألة مطروحة بعد، قد وقع إدماج الأشكال التأليفيّة التعليميّة مثل ما يسمّى بالتوليفات الإنجيليَة Evangelienharmonien والتشريع لها كصنف مقدّس. غير أنّ ما كان مناسبًا بالنسبة لواحد مثل تاتيان السوري سيغدو مسألة مبتذلة بالنسبة لنبيل فرنكي. ما كان يبدو حقيقًا بالتبرير بالنسبة لهذا الشاعر إنّما هي

مسألة تبويب ملحمته الإنجيليّة في خمسة كتب عوضًا عن الأربعة المعروفة:

«هذا التقسيم الخماسي الذي ذكرته قبل حين يجد له مبرّرا، بالرغم من أنّه لا توجد سوى أربعة أناجيل، في كون قدسيّة العدد الزوجي في الأربعة تغمر بقداستها فرديّة عدد حواسّنا الخمس، وكل ناقص وغير معتدل لدينا... تغيّره، تحوّله لترتفع به إلى سماء المقدّس. وحيثما أخطأنا؛ سواء عن طريق البصر أو الشمّ أو اللمس أو الذوق أو السمع سيكون بإمكاننا عبر استحضار النصّ الإنجيلي(eorum lectionis memoria) التطهّر ممّا يلحقنا من دنس.»[4]

يبدو هنا كما لو أنّ الأمر لا يتعلّق بحاجة الإنجيل إلى تحسينات، إنّما أولئك القرّاء والمستمعون الذين يُقبلون – كفرنكيّين وكبشر– بحواسّهم الخمس على النصّ الذي سيغمرهم بقداسته، هم الذين يستوجبون – إذا ما صدّقنا الكاتب– الحاجة إلى هذه الكتب الخمس في اللغة الألمانية

عوضًا عن الأربعة الأصليّة.

وبينما تجري هذه الواقعة من تاريخ اللغة الألمانيّة قبل ١٠١٠ سنة من البيان النيتشويّ، سنتعرّف من خلال العيّنة التالية من تاريخ نمط التمجيد الذاتي داخل الموروث الغربيّ على حالة أخرى لا تفصلها عن تدخّل صاحب مقولة العود الأبدي سوى سبعين أو ثمانين سنة فقط. يتعلّق الأمر مرّة أخرى بمسألة إدخال تعديلات وتحسينات على الأناجيل. غير أنّ الأمر سيأخذ هنا منحى على غاية من التعقيد، ذلك أنّ هاجس التمجيد الذاتي للفرد سيبرز جنبًا إلى جنب مع ظاهرة الإحتفاء بالذات الجماعيّة في هذا العمل. مسرح هذه التجربة هي الولايات المتحدة الأميركيّة سنة ١٨١٠، ومحرّر الأناجيل ليس أحدًا آخر غير محرّر بيان إعلان استقلال الولايات المتّحدة؛ توماس جيفرسون الذي سبق له أن تقلّب في وظائف وزاريّة لفترات متعدّدة كما شغل منصب نائب لرئيس الجمهوريّة ثمّ رئيسًا للجمهوريّة لدورتين متتاليتين. وكان جيفرسون قد انسحب بعد سنوات الوظيفة بواشنطن إلى قصر إقامته في

مونتيشيلو بفرجينيا حيث عكف على تلميع الصورة التي يريد أن يتركها عن نفسه للأجيال اللاحقة. إنّ الإشارة إلى هذه المعطيات لتكفي لوحدها لتدعيم حدسنا بأنّنا سنكون أمام حالة بارزة لسجلّ لغويّ قوميّ ديني، خاصّة ونحن نعلم أنّ الولايات المتحدة الأميركيّة تمثّل إلى حدّ اليوم المثال الأكثر خصوبة من بين الوحدات السياسيّة لـ«العائلات القوميّة» المعاصرة في مجال المديح الذاتي الجماعي. بل يمكن القول أيضًا أنها تمثّل المجتمع الذي تقوم شروط تأسّسه على العمل بأقصى ما يمكن من الجهد على إزاحة كلّ الكوابح الثقافيّة التي تعيق توظيف شتّى صيغ التفضيل التمجيديّة لنسقها الديمقراطيّ الخاص. وما عسى أن تكون الولايات المتّحدة الأميركيّة إن لم تكن نتاجا لإعلان الإستقلال – لا بمعني التحرّرمن سلطة التاج البريطاني فحسب، بل التحرّر من كلّ تواضع؟

لن نفاجأ إذن إذا ما رأينا كم ستكون الرسالة المسيحيّة هي أيضًا ملائمة لمتطلّبات المجد الأميركيّ. لقد أمضى جيفرسون العديد من ليالي فراغه من الشؤون الإداريّة زمن

فترته الرناسيّة الأولى عاكفا بالمقصّ على مجموعة من الطبعات الإنجيليّة (طبعات العهد الجديد) باللغات اليونانيّة واللاتينيّة والفرنسيّة والأنكليزيّة، ثمّ مجمّعًا لتلك المقتطعات محكمًا إلصاقها في دفتر ليكوّن منها صيغة جديدة للإنجيل. لقد أعلن هذا المشروع عن نفسه منذ سنة ١٧٩٥ في مراسلات مع عالم الأديان والكاتب الموحّدي جوريف بريستلي، غير أنّه لم يجد طريقه إلى الإنجاز إلاّ في سنة ١٨٢٠ على ما أعتقد وبعد سنوات انقطاع عديدة. وقد قُدّمت نتيجة عمل القص والتلصيق هذا تحت عنوان the Life and Moral of Jesus of Nazareth ، ثمّ عُرف من بعد تحت عنوان Jefferson Bibel. ولا بدّ أنّ محرّر الكتاب كان مقتنعًا بأنّه يمتلك من المعايير ما يمكّنه في عمله بالمقصّ من تمييز ما يمكن توظيفه وما هو غير قابل للتوظيف داخل النصوص التي كان يشتغل عليها آنذاك. وكممثّل لحركة التنوير الأميركيّة بما تتضمّنه من توحيديّة زخرفيّة واندفاع حماسيّ فيلادلفيّ سيعطي جيفرسون البرهان على ارتقائه قمّة حركة التنوير في

مجال المسألة الإنجيليّة. إنّه بإمكان المرء أن يدرك أنّ حاجة هذا الجنتلمان – الإنساني– المسيحي إلى الإرتقاء بالنفس من خلال المخزون الدلالي التقليدي، وإن كانت متوفِّزة ونشطة أكثر من أيّ وقت مضى، لا يمكن لها أن تتحقّق إلاّ عبر محو أجزاء واسعة من الأناجيل القديمة. ذلك أنّ كل من يريد أن يواصل ممارسة لعبة اللغة الإنجيليّة كلعبة للربح على طريقة الثورتين الفرنسيّة والأميركيّة، لا بدّ أن يكون بإمكانه قبل كلّ شيء أن يحذف ويزيح. ذلك هو جوهر الإنسيّة الجديدة: إباحة تشذيب وتنقية الأناجيل القديمة من كلّ ما لا يتلاءم وتمجيد الذات الخاصّ كنموذج للمواطن المدني والإنسانيّ. ليس هنالك من صورة أكثر تعبيرًا عن هذه العمليّة من تمثُّل رئيس دولة أميركيّ يجلس ليلا في مكتبه وبيده مقصّ، مشتغلا على ستّ نسخ من الأناجيل بلغات أربع مختلفة يحزّز الصفحات ويقطّعها أجزاءً، ويلصّق القطع في نسخة خاصّة لرسالة بشرى تستجيب في هيأتها الجديدة كمقتطعات ذات مصداقيّة إلى ما تبتغيه عواطف معاصريه ومنحاهم العقليّ. ما يميّز

فلسفة جيفرسون هو أنّه لا يعتبر مؤلّفه الإنجيلي هذا – تصنيف abstrakt أو Syllabus كما يقول هو– ضربًا من الهرطقة بحسب المعنى الأصلي للكلمة؛ أي كتطاول واستباحة اختياريّة تمسّ بمجمل عقيدة أو رسالة. بل إنّه على العكس من ذلك يعتبر نفسه منقّيًا للمحتوى الحقيقي للكتاب أعاد وضع نصّ نقيّ من كلّ شوائب الإضافات التي علقت به على مرّ العصور. وبسذاجة متحمّسة يعمد هذا المتنوّر إلى فصل ما لا يمكن قبوله من الأقوال المنسوبة إلى المسيح عمّا يمكن أن يكون قد قاله فعلا! ولو كان المسيح يريد أن يذكر من قبل جيفرسون بهذه الطريقة المتملّقة لكان دون شكّ قد ذكر ذلك من قبل، ولكان تنبّأ أيضًا بتحوّل المؤمنين إلى مجرد مناصرين. وبالفعل فإنّ هذا المناصر الجديد الذي سيطرح نفسه كممثّل لحركة التنوير الأوروأميركيّة يحرص، وبالرغم من كل الارتباطات بالتقاليد المسيحيّة، على ضرورة البقاء وفيًّا لما أنجز منذ عصر النهضة من حظوظ لتحصيل المجد الدنيويّ. ذلك بالضبط هو ما كان يشغل جيفرسون فيما

هـو يـجـتـهـد في اقـتـطـاع مـاهـو صـالـح وفصلـه عن كتلـة الـنصـوص المحرجـة في كتـاب الـعهد الجديد. وهـكذا غدا بإمكانه منذ شهر أكتوبر من سنة ١٨١٣ أن يزفَّ بشرى توفيق سعيه هذا إلى جون آدمس:

«ما يتبقّى إنّما هو المدوّنة الأخلاقيّة الخيريّة التي قدّمت للبشر في ذلك الزّمن. ولقد أخذت على عاتقي إنجاز هذه العمليّة حيث تناولت الكتاب المطبوع بيتًا بيتًا؛ اقتطعتها كلّها لأعيد صياغتها بعد أن انتقيت منـها المادّة الـتي كان انتماؤها للمسيح جليًّا واضحًا، وكانت تبرز ساطعة مثل حبّات الماس داخل كدس من الزبالة. ومحصّل هذا العمل كان دفترًا مدرسيًّا صغيرا بـ ٦٤ صفحة من التعاليم النقيّة والخالية من التكلّف...»[٥]

وفي رسالة إلى العالم الموحّدي الهولندي فرانسيس أدريان كامبْ يوضّح جيفرسون بأكثر استفاضة علاقته بيسوع الإنسان:

«إنّ ما يثير إعجابي الشديد هي براءة طبعه، ونقاوة

ورفعة تعاليمه الأخلاقيّة وبلاغة أقاصيصه وجمال مرافعاته بالرغم أنّه يتوجّب على المرء من حين لآخر أن يجهد نفسه من أجل التحلّي بشيء من التسامح تجاه المبالغات الشرقيّة. إلاّ أنّ مدائحي (eulogies) تنبني على مسلّمة ليست بحوزة أيّ كان: توجد من بين الأحاديث المنسوبة إليه من قبل الكثير من كتّاب سيرته عدّة مقاطع تحتوي على خيال بديع وأخلاقيّة مستقيمة وأعمال خير تستحقّ الإعجاب، وبالمقابل هنالك أعمال أخرى على غاية من الجهل والعبثيّة والكذب والدّجل والخداع بما يجعل المرء غير قادر على التصديق بأنه من الممكن أن تحسب مثل هذه الحماقات التي لا يقبلها العقل على نفس الشخص. من هنا كان عليّ أن أفرز الذهب من خَبَث الحديد لأعيد الأوّل إليه بينما أدع الثاني إلى البعض من تلامذته.»[٦]

على ضوء هذا التصريح سيكون من باب اللغو أن نعتقد

مثلما يفعل الناشر الحالي لسإنجيل جيفرسونس بأنّ حكيم مونتيشيلّي لم يفعل سوى البحث عن ما هو كلّي كوني وإسقاط كلّ ما هو تاريخيّ ظرفيّ. لم يكن جيفرسون يبحث لا عن مسيح تاريخيّ ولا عن مسيح كونيّ، بل عن موضوع (بمعنى الشيء) للمدح سيمكّن امتداحُه المادحَ من الإشتراك المضمون في فوائد المديح، بما هو مشارك له في القيم الأخلاقيّة الممدوحة. لقد كان اهتمامه منصبًّا على معلّم روحيّ بإمكان المرء أن يستشهد به من أجل ضمان منفعة خاصّة؛ مرجع سيسمح للمتكلّم أن يغدو، بواسطة النهل من منبع القيم المقدّسة، شريكًا في المجد. إنّ هذا الطموح إلى تحقيق الأرباح الرمزيّة لا يمكنه، وفقًا لعقليّة الحزّ والبتر التنويريّة، أن يتحقّق بواسطة إنجيل لم يخضع إلى الإختصار، ولذلك كان لزامًا على الكاتب العاقل أن يمحو من الكيان الجمليّ للأخبار والأحاديث الإلهيّة كلّ ما من شأنه أن يورّطه في أعين العقلاء الآخرين، أو ما يمكن أن يلوّث سمعته بتهمة الطائفيّة، أو التيه المعرفي، وهو ما يعني الأمر نفسه. وقد عمد تولستوي من بعد، محرّكًا

بعقليّة مشابهة، وبوسائل مشابهة أيضًا إلى وضع نسخة إنجيليّة خاصّة قدّمها كنوع من «إنجيل خامس»: السبيل الروسيّ لتعايش الإنجيليّة والتنوير.(٧)

الحداثيون لا يعرفون الإنجيليّين، إنهم لا يعرفون سوى الكلاسيكيّين. ومن يستشهد منهم بكاتب أو مفكّر كلاسيكي بمستطاعه أن يحقّق كسبا مضمونًا حتّى وإن كان كسبًا متواضعًا، أمّا من اتّخذ له في المحافل المخلّص مرجعًا فسيشهد تقلّص رصيده. وبالفعل فإنّ التنوير لعبة لغويّة لصالح المنتصرين معرفيًا؛ أولئك الذين يسجّلون بلا انقطاع جوائز العلم والنقد على حساباتهم ولا يتوقّفون عن استعراض رصيدهم الثقافي، بينما تنسحب العقيدة إلى ما وراء حاجز الحرج الذي لا يتجاوزه سوى من قرّر في ما بينه وبين نفسه التنازل عن الأبّهة التنويريّة المعروضة عليه. لكنّ جيفرسون ليس بالشخص الذي يرضى بإرهاق نفسه بالحرج وباللعبات اللغويّة الخاسرة، وتبعًا لذلك ستختفي في تحريره للكتاب المقدّس الموضوع للفائزين في حركة التنوير كلّ أحاديث الوعيد الرؤيويّ للمسيح،

تمامًا مثل أغلب روايات معجزات المعالجة وكذلك القصص المتعلّقة بالبعث والنشور. وينتهي إنجيله المنقّى بأنّ بعضًا من أتباع المسيح قد دحرجوا الحجر أمام قبره ثمّ انصرفوا. إنّ جيفرسون كملفّق نصوص ينفّذ على أحسن وجه ما تفرضه المستلزمات الأدبيّة للعصر الحديث: حيثما كانت هناك أسطورة تحلّ رواية محلّها! تبعًا لذلك سيقع الإستعاضة عن الشخصيّات المقدّسة بممثّلين أرضيّين. حتّى يسوع نفسه لا يمكنه أن يكون إلاّ بطل رواية أو طرفًا في خطاب.

وعلى العموم فإنّه غدا على مديح الأبطال أن يتخلّص من التعقيدات القديمة بما يجعل الوظيفة المدحيّة خاضعة أكثر فأكثر للمقدّمات العلميّة، والتعاليم الدينيّة في خدمة الملاءمة السياسيّة. كما أصبح على المرء التنبّه بصفة دائمة إلى المفعولات الجانبيّة لكلّ خطاب مدائحيّ وإخضاع انكساراته وانعراجاته باتجاه التمجيد الذاتي غير المباشرلحساب دقيق. والقاعدة الأساسيّة في ذلك هي أن تظلّ كلّ التعبيرات المدائحيّة سليمة وأن لا تقول بأيّ

تدخّل من الماوراء في الوجود المحايث. لقد تقلّص هامش الحريّة وأُخضعت الإستراتيجيةُ الثقافيّةُ الحديثة للمديح الذاتي غير المباشر المستثمِرين إلى أثمان باهضة مقابل محصول نرجسيّ منخفض. هذا الوضع تلخّصه عبارة الأنسنة» في الإستعمال الذي يخضعها له عالِم الأخلاقيّات اليوم: إنّها توعز إلى المتكلّم بعودة محسوبة إلى إثبات الذات تكاد لا تختلف عن حالة اكتئاب من درجة متوسّطة. ولتجاوز هذا المأزق ستشير الثقافة الجماهيريّة للقرن العشرين إلى مخرج، وذلك بجعل التقريظ الذاتي مرتبطًا بالقدرات العالية، والمَقاساتِ محدّدةً بالقدرة الفائقة على استثارة الإعجاب؛ وهكذا تغدو الحماسة والنخوة مسموحة على أن لايتمّ اعتلاء الركح إلاّ حيث يكون في انتظار المتكلّم جمهور من المتواطئين المتّقدين حماسة احتفاليّة تعصف بكلّ الروادع. غير أنّ جيفرسون لم يكن يحظى بمثل هذه التسهيلات، فكان عليه أن يربط دفاعاته الفخريّة بالنصوص المقدّسة وأن يعود إلى المثالات العليا للتراث كيما يتسنّى له عبر الطريق

المنعرجة للمجرّدات المنقذة أن يخدم متعلّقه: الخطاب الحماسيّ الفخريّ المنشود. هكذا أصبح بإمكانه أن يكتب إلى أحد مراسليه: «أنا مسيح، لكن فقط بحسب روح إرادته هو في أن يكون بإمكان كلّ إنسان أن يغدو مسيحًا: أن يكون متعاطفا بقوّة مع تعاليمه... وأن يسجّل لحسابه كلّ فضيلة بشريّة (ascribing to himself every human excellence) ...»[٨]

إنّ مزيّة جيفرسون تتمثّل في كون ريائه عفويًّا وواضحًا. وانتقاؤه للماس من كومة نفايات التراث يجسّد الإنتقائيّة الأميركيّة المطّردة تجاه الموروث الأوروبي. فاستيراد المعاني من القدس وروما وجنيف وفيتنبرغ لا بدّ أن يخضع هو الآخر للإجراءات الجمركيّة الأميركيّة.

إنّ ما يمكن تعلّمه من التحرير الإنجيلي لجيفرسون هو أنّ شروط الإستفادة من المرجعيّة المسيحيّة قد غدت ذات طابع إشكاليّ وذلك قبل التدخّل النيتشويّ بما يقارب قرنا من الزمن. إنّ ما ظلّ لما يزيد عن الألفيّة ونصف يمثّل رسالة بشرى، وفي أغلب الأحيان رسالة مفيدة بالنسبة

للثقافة الغربيّة؛ أي الشهادة بإلحاق الإنسان بدائرة القرابة مع العالم اللاأرضي لله، قد غدا يتّضح باطّراد كلعبة خاسرة بالنسبة للمبشِّرين: لقد طرأت على الشروط والملابسات المحيطة بنشر وتبليغ رسائل من هذا النوع تغييرات جمّة، وبالمقابل يبدو المبشِّرون بهذه الرسائل كأشخاص لم يتعلّموا بعد الكيفية الناجعة والمربحة في تناول الكلمة ضمن متغيّرات العصر الجديد.

II الخامس

في الثالث عشر من شهر فبراير ١٨٨٣ حرّر نيتشه من إقامته برابيللو، وهو في الثامنة والثلاثين من عمره آنذاك، رسالة ذات أسلوب دبلوماسيّ بليغ إلى ناشره أرنست شمايتسنر بكيمنتز:

«حضرة السيد الناشر المحترم

... إنّ لديّ اليوم خبرًا جميلا أزفّه لكم: لقد قمت بخطوة حاسمة – أعني بذلك، وعلى سبيل الإشارة، أنّها خطوة من المفترض أن تكون مفيدة بالنسبة لكم أيضًا. يتعلّق الأمر بمؤلّف صغير (ما يقلّ عن ١٠٠ صفحة مرقونة) بعنوان:

هكذا تكلّم زرادشت

كتاب للجميع وليس لأحد.

«مقطوعة شعريّة» أو «إنجيل خامس»، أو أيّ شيء آخر لا

يوجد له إسم بعد: إنّه أكثر مؤلّفاتي جدّيّة وجرأة، وهو في متناول الجميع. لذلك أعتقد أنّه سيكون له «تأثير مباشر»...»[٩]

وفي ٢٠ أبريل من نفس السنة يكتب نيتشه إلى مالفيدا فون مايزنبورغ برومـاس:

«... إنّها قصّة رائعة: لقد تحدّيت كلّ الأديان ووضعت «كتابا مقدّسا» جديدًا!

وبكلّ جدّية أقول إنّه على غاية من الجدّ كما لم يسبق لكتاب آخر أن يكون، وإن كان قد استوعب الضحك وأدمجه داخل الدين.»[١٠]

وفي ٢٤ ماي يلاحظ نيتشه في رسالة إلى كارل هيلبراندت حول الجزء الأوّل من زرادشت:

«كلّ أفكاري ومعاناتي وآمالي توجد داخل هذا الكتاب، وبكيفيّة جعلتْ حياتي تبدو لي كما لو كانت نازعة إلى تبرير ذاتها من خلاله. ومرّة أخرى أشعر بالخجل أمام نفسي إذ أنّني بهذا العمل قد مددت يدي

إلى أكاليل المجد؛ تلك التي تنازلت عنها البشريّة منذ زمان.»[١١]

وبعد سنة من ذلك كان صدى عبارة اقتطاف «الأكاليل الأكثر سموًّا» لايزال يطنّ في أذني نيتشه / إلاّ أنّه سيعبّر عن ذلك الآن بـ «اللغة الغبيّة والخاطئة للطموح»[١٢]. إنّ مجمل مراسلاته التي تعود إلى فترة زرادشت مخترقة بتكرّر الإعلان عن اختتام مؤلّف يبدو كأمر لا مثيل له يشغل قلب الكاتب. وكان البريد الإيطالي والسويسري هما اللذان تكفّلا بنقل هذه «البشرى».

إنّ قطيعة نيتشه مع التقليد المدائحي– الإنجيلي الأوروبي القديم قد أوضحت أنّه لم يعد بالإمكان، من موقع التنوير، أداء الوظيفة المدائحيّة المباشرة للخطاب على أسس التوفيقات التأليهيّة (deism) وتعاليم التربية البروتستانتيّة. وعلى كلّ من يبحث عن لغة تسمح للمتكلّم أن يسجّل «كلّ الفضائل البشريّة» (every human excelence) لحسابه، أو أن يضمن لنفسه على الأقلّ الإشتراك في

الميزات السامية، أن يطوّر استراتيجيات لغويّة تتجاوز الإنتقائيّة الجيفرسونيّة. لقد باتت جهود تفادي الإحراج من خلال إزاحة أخبار المعجزات غير ذات جدوى داخل نظام التواصل الحداثيّ؛ لم يعد كافيًا مجرّد القفز على مقاطع الرؤى الكارثيّة المُرغية ونبوءات الوعيد التي من شأنها أن تجلب لكلّ كاتب اللوم من قبل جمهور مشبع بالأفكار العقلانيّة والإنسيّة. من الذي سيكون بإمكانه الآن أن يُحيل أمام العموم على يسوع مرقس (٩– ٢٤) الذي كان يرى أنّه يحقّ له أن يقول: «ومن أعثَرَ أحدَ الصغارِ المؤمنينَ بي فخيرٌ له لوْ طُوّقَ عُنقُه بحَجَرِ رحًى وطُرحَ في البحرِ»؟ لقد اكتفى أحد المعلّقين من سنة ١٨٨٨ بملاحظة: «لكم هو إنجيلي!»[١٣] – لم يعد المقصّ كافيًا إذًا لنجدة من سيواصل التكلّم بالبشرى ولحفظ كرامته – فقد اتّضح أنّ الإنجيل المتوارث برمّته لم يعد قادرًا على الصمود في وجه البحوث الجديّة. وحتّى تنقيته من الأساطير لم يعد بوسعها إعانته على النهوض على قدميه من جديد؛ فلكم هي غامضة، ومشبوهة ومتدنّية تلك المناهل التي ينسرب منها

سيل أقاويله الجميلة! إنّ القلق الكامن في أدّعاءاتها الكونيّة المدوّية وخيريّتها المشحونة بالوعيد، لم يعد بإمكانه التستّر على نفسه. وإذا ما كان هنالك بعد من مجال لـ«البشرى»، وإذا ما أرادت أن تضمن لدعوتها شروط الإنتظام في صفّ الرابحين، فإنّه سيتحتّم أن تعاد صياغتها في شكل جديد – جديد بما فيه الكفاية لكي تتفادى التشابه المحرج مع كلّ ما لم يعد مقبولا من النصوص، ولكنّه مشابه أيضًا وبما فيه الكفاية بما سيضمن لها شروط تقبّلها ككتابة جديدة مطوّرة تظلّ محافظة على الأقلّ على الطابع الشكلي المعتاد للإستمرار الإنجيلي. لذلك ستغدو كلّ إعادة كتابة لخطاب محمّل بانتظارات النجاح مشروطة اوّلا وقبل كلّ شيء بخلخلة وتخريب الأشكال القديمة: إنّ الإنسان الذي يحقّ له أن يقدّم الوعود هو ذلك الذي يستطيع بواسطة الكلمات القديمة أن يقول أشياء غريبة. غير أنّ نيتشه لا يرغب فقط في محاكاة الإنجيل على طريقة الباروديا كما لايرغب في توليفة للوثر بنشيد مدائحيّ ديونيزوسيّ

Dithyrambus وتعويض ألواح موسى بأخرى زرادشتيّة. إنّه منشغل أكثر بإعادة ترتيبٍ كليّةٍ لمجمل النمط الإعتقادي وسلسلة الإستشهادات؛ همّه فعلا هو مراجعة التّفريق بين الشهادة (إعلان الإيمان) والشّواهد. مؤلّف زرادشت يريد أن يعيد إعلان الطاقة المدائحيّة للغة بطريقة جديدة كليًّا وتحريرها من كوابح الإحراج التي مارست تأثيرها عليها تحت سيطرة الإضطغان الميتافيزيقي المقنّن. هذه النيّة تطنّ بها كلمات نيتشه وهو يؤكّد لصديقه فرانس أوفرباك: «..أن أكون بهذا الكتاب قد تجاوزت كلّ ما قيل بالكلمات إلى حدّ الآن...» وهي النيّة ذاتها المفترَضة في إعلانه لنفس المراسل: «إنّني الآن، دون شكّ الرجل الأكثر استقلاليّة في أوروبا.»(١٤)

إنّ المستوى الأعلى لهذه الإستقلاليّة – أو لنقل: المجال الذي أُفسح لهذه الممارسة – قد جاء نتيجة رؤية قد أتمّ نيتشه بلورتها ضمن التمرين الهجوميّ الذي أنجزه منذ كتاب «إنسانيّ، مفرط في الإنسانيّة». لقد انتهى مؤلّف «المعرفة المرحة» إلى الإقتناع بأنّ الإضطغان هو إحدى

الطرائق التي يتشكّل عليها العالم، بل المنحى الأكثر سطوةً وضررًا. وكلّما اتضحت معاينة هذا الواقع أكثر في عيني الكاتب، كلّما غدا تدخّله هائلا وأكثر شموليّة واتّساعًا: في كلّ ما ظلّ إلى حدّ الآن يسمّى بالثقافات العليا، والديانات، والأخلاق كان يسيطر نمط التأويل الإضطغاني؛ وكل ما ظلّ على مدى العصور يتزيّا بمظهر النظام الأخلاقي الكونيّ يحمل ختمه. وكلّ ما جاء يدّعي المساهمة في إصلاح العالم قد كرع هو كذلك من هذا السمّ. من هنا كان الإستنتاج الكارثي الذي هبط على المؤلّف بما يشبه الرؤى الكارثيّة الألفيّة: إنّ كلّ خطاب متشكّل في الميتافيزيقا خاضع للدوران في مدار نواة اللاعقلانيّة. ومجمل التعاليم الحِكميّة القديمة وكذلك النظريّات الحديثة المتفرّعة عنها ليست سوى منظومات خطابيّة ثلبيّة ضدّ صيرورة الوجود بكلّيتها. إنّها تخدم الإفتراءعلى العالم والقوّة والإنسان لصالح العاجزين، وتهدف إلى إهانة السعيدين الأقوياء وتحقيرمواقف الإحتفاء الذّاتي. إنّ الثقافات العليا لما بين آسيا وأوروبا عندما تضع كلمتها الأخيرة في الميزان

تتحدّث لغة أولئك الذين يسعون إلى التصرّف داخل الحياة بطريقة تجعلهم في مأمن من كلّ المخاطر. ما يسمّى إلى حدّ الآن بالأخلاق إنّما هو كونية الإنتقام، وكذلك كلّ ما ظلّت تحمله الميتافيزيقا وتنقله من حكم صالحة وعلوم وخبرات حياتيّة إنّما هي الخطوة الأولى لتحرّكها الخفيّ والواثق باتجاه تحقير الواقع باسم حقيقة أرقى وعالم مضادّ ستظلّ تُطري عليه بهدف التقليل من شأن العالم الآخر وتحقيره. إنّه في نفس الوقت ذلك الإطراء الذّاتي الذي تمارسه الرغبة الإنتقاميّة لتستطيع بفضله أن تمنح الضعفاء والحُمْقَ إمكانيّة للإعلاء من شأن ضعفهم وحمقهم. داخل الخطاب الديني الميتافيزيقي يتحوّل الوضيع والمحتَقَر إلى طاقة ماكرة لعنف مدائحيّ معكوس.

أن يرى نيتشه إذًا في القدّيس بولس ،إلى جانب سقراط وأفلاطون، عبقريًا في مجال التحريف* وقلب الحقائق فذلك

---

* يعتبر نيتشه القديس بولس المسؤول الأوّل في تحريف تعاليم المسيح الذي لم يأت حسب رأيه ليكرس للإضطغان والعنف ولا ليؤسّس عقيدة دوغمانيّة ولا أيّة كنيسة «لقد وقع تأسيس كنيسة كمقابل ونقيض للإنجيل» – أورده راينهاردت ماورر في مقال بعنوان: أطروحات حول نيتشه كعالم لاهوت: (المترجم)

Reinhardt Maurer, "Thesen ueber Nietzsche als Theologen un Fundamentalkritiker, in NietscheStudien No.28,1999.=

أمر لا يحتاج إلى مزيد من الشرح والتعليق، وكذلك الشأن بالنسبة لمسألة تعديل مقاييس مقارنة النتائج الكبرى التي آلت إليها التجربة البولسيّة لكي يجعل من تعديلاته تلك المحور الذي سيتأسّس عليه تاريخ المستقبل. على أسس هذه الخلفيّة سيضع مؤلّف زرادشت الحلقة الأولى لسلسلة الرسالة البديلة التي يبتغي تحريرها والتي سيتمّ داخلها إخماد صوت المعزوفة الميتافيزيقيّة. وعلى ضوء هذه المناورة سيتسنّى له إدراك طبيعة موقفه التاريخي ذلك؛ سيدرك أنّه بصدد حدث «تاريخي عالمي» سيحرّر التيارات اللغويّة الراهنة من ارتباطاتها بالإضطغان ويعيد تصريف الطاقات الإمتداحيّة ضمن مجرى جديد. لكنّه يدرك أيضًا أنّ عمليّة بهذا الحجم الهائل تتطلّب كثيرًا من الوقت، ويرى في ذلك جزءً من التضحية والإستشهاد

= وفي نفس السياق يقول جيل دولوز في كتاب «نيتشه والفلسفة» (تعريب أسامة الحاج): إنّ ما تتركنا النصوص نحرزه بصدد المسيح الحقيقي هو التالي: الرسالة المرحة التي كان يحملها، إلغاء فكرة الخطيئة، غياب كلّ اضطغان وكبّ روح انتقام رفض كلّ حرب... إنّنا نرى إلى أين يريد نيتشه الوصول: كان المسيح نقيض ما صنع منه بولس، كان المسيح الحقيقي على غرار بوذا، «بوذا على أرض ليست هنديّة» «لقد لواه القدّيس بولس، يؤكّد نيتشه ، وحوّله إلى مذهب أسرار وثنيّة، وانتهى إلى التصالح مع كلّ التنظيم السياسي... وإلى تعلّم ممارسة الحرب، والإدانة، والتعذيب، والشتيمة، والكره».

الذين ينتظرانه؛ أن يغدو من المتعذّر عليه أن يشهد التطوّرات التي ستؤول إليها فكرته الأساسيّة: «إنّني أطلب من نفسي الكثير»، يقول في رسالة إلى أوفرباك من البندقيّة في ماي ١٨٨٤ وبشيء من السخرية: «أن أكون جحودًا تجاه أفضل ما أنجزتُ، حتّى أنّي لو توانيْت في المضيّ به إلى المدى الذي سيجعل آلاف السنين المقبلة تهتف بأرقى النذر والأدعية باسمي، فسيبدو لي أنّني لم أحقّق أيّ شيء.»[١٥] وفي سبتمبر من نفس السنة يقدّم أمام هاينرش فون كوزليت»* هذا الإعتراف: «إنّ زرادشت لم يحقّق إلى حدّ الآن سوى الغاية الذاتيّة، بمعنى أنّه «كتاب لغبطتي الشخصيّة وتنشيط معنويّاتي» – وفي ماعدا ذلك فهو بالنسبة لأيّ كان قاتم وغامض ومضحك»[١٦].

«كتاب غبطة»، «كتاب مقدّس»، كتاب للإستقلاليّة والمجاوزة، «كتاب قمم وأعالٍ بأتمّ معنى الكلمة»[١٧]،

* «كيف ارتفعت إلى هذه الأعالي حيث لا يجلس إلى النبع أيّ من السفلة الرعاع؟ («هكذا تكلّم زرادشت»: من خطبة زرادشت وهو يتحدّث عن تخلّصه من القرف). يورده نيتشه في كتاب «هذا هو الإنسان» Ecco homo ، فصل: لمَ أنا على هذا القدر من الحكمة؟ ثمّ يضيف: «...هنا، فوق أعلى القمم يفيض نبع الفرح بالنسبة لي... صيف فوق أرقى الأعالي... لأنّ تلك هي أعالينا، وذلك هو موطننا: مسكننا هذا مرتفع جدًا ومسلكه وعر ممتنع عن النّجسين وعن لهفة النّجسين.» (المترجم)

«إنجيل» (أو وصيّة)[١٨] «إنجيل خامس»: التسميات التي يعطيها نيتشه لإبنه الأدبي زرادشت («إبني زرادشت») تنهل كلّها، كما النصّ ذاته، من معين اللغة الدينيّة المتوارثة التي يقع تحويلها هنا لخدمة الغاية الجديدة. إلاّ أنّ الغرض الجوهري من إعادة استعمال مثل هذه الصيغ يقع خارج دائرة الأسلوب البلاغيّ المحاكاتي. ويوضّح نيتشه بأن مصطلح الـ«إنجيل» في حدّ ذاته قد تمّ شحنه بالأمثلة الخاطئة، إذ هو يقدَّم في التقليد المسيحي على أنّه كتاب بُشرى، لكنّه من حيث القيمة البراغماتيّة للغته والنظام السلوكيّ الذي يحمله لا يمكنه أن يكون سوى تجسيد لانتصار خطاب الحقد. ولا تعدو الأناجيل الأربعة في رأيه كونها مؤلّفا في الإفتراء على العالم وشجبه لفائدة المتعطّشين للإنتقام والمطمئنّين؛ مؤلّف وضعه طائفة المتعطّشين للسلطة par excellence من العصور الميتافيزيقيّة الغابرة، وعلماء اللاهوت – الكهنة، والدّاعون إلى العدم، وفيالق الرّعين الأخير الحديثة من صحفيّين وفلاسفة مثاليّين – أناجيل ملفّقة من نصوص دعائيّة اضطغانيّة

تزوّر رسم الهزائم في صورة نجاحات، والإنتقام المكبوت في هيأة تعال راقٍ ومتكبّر يلتذّ بالتحليق فوق النصوص والوقائع. إنّ وعي نيتشه مرتبط بإدراكه بأنّ المهمّة ملقاة على عاتقه لإحداث القطيعة في هذا التقليد الممتدّ على مدى العصور للدعاية المناهضة للفكر.... إنّ هذا المقطع من كتاب Ecce homo يعبّر بدقّة عن هذا الغرض (الخروج من دائرة التحريفات الميتافيزيقيّة):

«إنّها نهاية كلّ ذلك «النزوع القاتم»، حيث كان الإنسان الخيّر أقلّ الناس وعيًا بالطريق السويّ. وأقولها، بكلّ جديّة: لم يكن هنالك من أحد قد عرف الطريق السويّ قبلي، الطريق الماضية قُدُمًا باتجاه الأعالي: بداية منّي أنا أصبحت هناك من جديد آمال، ومهمّات، وطرق مرسومة للثقافة – وإنّي أنا الرسول المبشّر بهذه الثقافة.»[١٩]

إنّ إنجيلية نيتشه تعني إذًا: إدراكه لدوره كمناقض لقوى التحريف المهيمنة منذ آلاف السنين، وكمناهض لكلّ

ماظلّ يسمّى بالإنجيل إلى حدّ ذلك الوقت؛ إنه يرى قدَره في أن يكون حامل بشرى «لا مثيل له في السابق»[٣٠]. تلك هي رسالته؛ أن يدمّر القدرات التواصُليّة للمسمَّمين (بفتح الميم). إنّ «الإنجيل» الخامس – ولنلاحظْ أنّ نيتشه لا يضع سوى عبارة: إنجيل «بين المعقّفين، ثمّ يستعمل إلى جانبها عبارات «نص شعري» أو «شيء لا يوجد له من اسم بعد» كتنويعات إضافيّة – يطرح نفسه إذنْ كإنجيل مضادّ لا يتّخذ محتوىً له نكران العالم كشكل للتحرّر من الواقع، بل يعتمد الإستجابة الإثباتيّة

die Bejahung طريقةً للتحرر من أجل إثبات الحياة في كلّيتها. إنه إنجيل دعوة لـ«لا موجبَ هناك بعد للكذب»، إنجيل لتفنيد النفي Negentropie، أو للإبداع، وهو بذلك، ونظرًا لأنّه ليس هناك سوى أقليّة من الأفراد تمتلك القدرة على الإبداع والإرتقاء، إنجيل أقليّة، أو أكثر من ذلك: إنجيل «للا أحد»؛ رسالة لمتلقّ غير محدّد، لأنّه ليس هنالك بعد ولو أقليّة ضئيلة بإمكانها أن تتعرّف على نفسها كمعنيّ بتلك الرسالة لتتسلّمها مباشرة. ليس عبثًا إذًا أن يظلّ

نيتشه خلال الأشهر والسنوات التي تلت صدور الأجزاء الثلاثة من زرادشت يتذمّر بتكرار، بصدق وبطريقة مفتعلة على حدّ سواء، من كونه لم يكسب ولو «تلميذًا» واحدًا.

وحتّى ما لوحظ من بعد من أنّ الإنقلاب الحيويّ الذي أجراه نيتشه على الفكر قد نزل في محيط تاريخيّ أبدى استعدادا كبيرًا لتبنّي تلك اللغة الجديدة؛ لغة الإستجابة الإثباتيّة للحياة، فإنّه لا يناقض إلاّ ظاهريًّا هذه الحقيقة السلبيّة. وكذلك هو الشأن بالنسبة لـ «التأثير التاريخي» المعايَن في موجة الإقبال التي انتشرت مباشرة بعد وفاة نيتشه والتي جعلت من زرادشت نبيًّا موضويًّا، ومن «إرادة القوّة» شعارًا لكلّ طالبي الإرتقاء الإجتماعيّ، هذه الموجة هي أيضًا لا تفنّد الأطروحة القائلة بأنه لم يكن، ولن يكون هنالك من متقبّل ملائم لهذا «الإنجيل». والسبب في هذا يكمن في الإقتصاد الداخلي لهذه الرسالة الجديدة التي تفرض ثمنًا غير متيسّر، بل مستحيلا كمقابل لامتلاك الحظوة في التمتّع بامتيازاتها. إنّ «الإنجيل الخامس» يدفع بمتقبّليه إلى تحمّل تكاليف باهضة جدًّا ممّا يجعله

من وجهة نظر التقرير المحاسباتيّ لا يستطيع أن يُتقبَّل إلاّ كنبإ شؤم. وإنّه ليس من باب الصدفة إذًا أن يكون قد جرّ رسوله الأوّل نفسه إلى انفصام الصلة مع البشريّة ماضيًا وحاضرًا، فهو يتطلّب من كلّ تلميذ ضربًا من الزهد الجذريّ تجاه الأشكال المتداولة للأوهام الضروريّة للحياة والتّيسيرات المدنيّة بحيث يجد نفسه وحيدًا في وضع من التبتّل الذي لا يطاق، إذا ما أراد الإنخراط بجديّة في مشروع الرسالة الجديدة. إنّ عمليّة التجديد النادر الوجود لطاقات الإنشاد المدائحيّ في شكل تيّار خطابي بديل تنطلق بالأساس من مقترح التكلّم بخطاب إنجيليّ قائم على «تصفية للإنجيل» ذاته – والعبارة تعود إلى نيتشه الذي استعملها للتدليل على «الكنه الحقيقي» لتعاليم بولس•، وهي التي سيعتمد عليها أويجن روزنشتوك – هويسّي في وصفه للرموز الكبرى للتأويل الواقعي للقرن التاسع عشر: ماركس وغوبينو ونيتشة وفرويد بمصفّيي الإنجيل الأربعة في ثقافة الخواء الروحي الحداثية[٢١] – غير أنّنا سنتكلّم عنهم الآن بأقلّ انفعال كمؤسّسي مشاريع

• أنظر الهامش حول موقف نيتشه من القدّيس بولس.

خطاب حول الواقع.

ينطلق «الإنجيل» الخامس من عمل تدميري ليس له من مثيل؛ إنّه يحتذي بمثال «المعرفة المرحة»، وهي في الواقع الرسالة الأكثر قنوطًا التي لم يسبق لأحد أن يدعو لمثلها في ما مضى، إذ فيها يقع اشتراط مستوى من الكشف والتعرية يمضي إلى أعماق واقعة على تخوم الإنتحاريّة؛ أو ما يعادل تقريبًا Vagus-Tod الموت من جرّاء الإحباط.[٢٢]

ولم يكن نيتشه، على أيّة حال، ليشكّ في علاقة التأثير الوطيدة القائمة بين مرضه العضال ووضوحه الذي ليس له من مثيل في مجال المسائل النفسيّة والميتافيزيقيّة. لقد كانت حياته الخاصّة تمثّل بالنسبة له «تجربة العارف»، وكان يرى إلى آلامه كثمن لمعرفته تلك. وكلّما دفع أكثر كلّما ابتعدت به رؤاه وحالته أكثر فأكثر عن واقع المجموعة البشريّة من حوله. سيظلّ ينزلق دون انقطاع باتجاه موقع منعزل عن مواضعات الكذب الإجتماعيّة، ومن تلك المسافة الفاصلة المتّسعة باطراد ينظر إلى أصنام القبيلة وآلهة السوق والكهف. طبقًا لأسطورته

الخاصّة عن قاطن الأصقاع الجليديّة Hyperboreos* يصف نيتشه إقامته في الصقيع كمنفى سعيد و اختياري. وبالتالي فمن البديهي أن يعتقد بأنّه من المستحيل أن يكون لديه من ذلك الموقع نقطة ارتكاز يمكن أن يشاطره إيّاها قراء عصره، وأقلّ من ذلك كان طمعه في أن يجد تلامذة بإمكانهم أن يقبلوا بتعاطي دروسهم في ظلّ شروط مشابهة. من هنا ذلك الإلحاح الدائم في الإعلان عن قدَر وحدته، و تلك النظرة إلى العالم كـ «بوّابة مشرعة على ألف صحراء، خالية وباردة». ومن هنا أيضًا تلك الريبة تجاه كلّ من سمح لنفسه بأن يربّت على كتفيه مجاملة أو تملّقًا. إنّ الثمن الذي تفترضه تلك الرسالة يجسّده زرادشت في فصل «النقيه» عندما يقع مغشيًّا عليه بسبب القرف والإحباط لدى مواجهته لـ«خواطر الهاوية» ليظلّ بعد استفاقته متأرجحًا لسبعة أيّام ما بين الموت والحياة. إنّ للحقيقة، «في الحقيقة»، هيأة مرض قاتل: انتهاك قوي لنظام المناعة الذي يسمح للإنسان بالتحليق فوق نقطة تقاطع الكذب مع العافية. وعلى أيّة حال فإنّ كلّ من يروم

* في الأسطورة اليونانيّة: شعب من تراكيا يحلّ لديه أبولو لقضاء الشتاء. (المترجم)

الخروج بسلام من عمليّة بعثرة انتظام التوازن الوهميّ القائم إلى حدّ الآن، لا بدّ أن يكون شيئًا آخر غير إنسان بالمفهوم المتعارف حتّى الآن: كائن أعلى ملقّح بجنون الحقيقة. إنّ وجه المفارقة الإقتصاديّة في رسالة البشرى النيتشويّة يتمثّل في إشارته إلى أنّ رسالة الشؤم المؤسّسة الهائلة تفتضي تجنيدًا غير معهود لقوى خلق وإبداع مضادّة من أجل التعويض عن الخسارات التي أحدثتها مفعولاتها. ومفهوم الإنسان الأعلى هو الرهان على الإمكانيّة البعيدة لمثل هذا التعويض: «إنّ لدينا الفنّ: هو الذي سيجنّبنا الوقوع في الهلاك بسبب الحقيقة.»* يعني ذلك أنّه لدينا أفق الإنسان الأعلى كوسيلة لتحمّل جسامة النظر في عراء الشرط الإنساني. هذا المقترح سيقدّم نفسه كدعاية لذلك الأمر ذاته الذي يسبّب الرعب والنّفور. وهو السبب الذي جعل «كتاب زرادشت» بكلّيته يضطر إلى الظهور في شكل عرض تمهيدي ممطّط: إنّه لا يفعل في أجزائه السرديّة سوى عرض تردّد الرسول في الإفصاح عن رسالته.

---

* مولد التراجيديا. F.N., Geburt der Tragoedie KSA 13, 16

كلّ من ابتغى بالرغم من ذلك، أن يوجِد لنفسه مدخلا يسيرًا إلى ما تمنحه تلك الرسالة من حظوة ومنافع، بثمن رخيص ودون اعتبار للمخاطر والتحفّظات التجريبيّة – وتلك هي الصيغة العمليّة لمجمل تاريخ الكتابات المنتسبة إلى النيتشويّة داخل الحركة المعادية للديمقراطيّة، بل وحتّى ما جاء كتقييم وإعادة قراءة لها فيما بعد داخل حركة النقد الإديولوجي الديمقراطيّة – كان عليه أن يفكّ الإرتباط بين الوظائف المدائحيّة الجديدة لهذه الرسالة ،والجانب التنويري المتقدّم وعمله التدميريّ، وأن يُجرّد عبارة «الإنجيل» من المعقّفات التي تضمّها؛ أي من محتواها الجديد وطابع سخريتها. وقد كان نيتشه على وعي بجانب التكلفة العبثيّة لمشروعه، ولطالما عبّر عن ارتيابه بخصوص إن كانت استعادة موقف مدائحي– إنجيلي مخلّص من العدميّة المتأسّسة أمرًا مجديًا وجوديًّا وعمليًّا. ونراه في سنة ١٨٨٤ يكتب إلى مالفيدا فون مايزنبورغ:

«إنّ ضميري يرزح تحت عبء حمل أثقل من la betise

humaine (التفاهة الإنسانيّة). إنّه من الممكن أن أكون قدرًا بالنسبة للأجيال القادمة: القدر المحتوم. وإنّه من الممكن تبعًا لهذا أن أخلد ذات يوم إلى الصمت رحمة بالإنسانيّة!!!»(٢٣)

لننتبه إلى نقاط التعجّب الثلاث التي تتبع هذه الإشارة إلى إمكانية الخلود إلى الصمت. إنّ كل عمل توضيح لرسالة نيتشه مطالب بالإجابة عن سؤال: كيف أمكن للرسالة أن تفرض نفسها على هذه العوائق الداخليّة وتتجاوزها؟ هنالك ما يمكن أن يمثّل نوعا من التوضيح وهو الكيفيّة التي وضعت فيها، داخل جدول المحاسبة، عناصر التصفية الإنجيليّة في مقابل دوافع التجديد الإنجيلي بحيث يمكن أن تكون الكفّة قد رجّحت لصالح العنصر الأخير، وأنّه قد تمّ ضمن هذه المراجعة اعتماد صلوحيّة الحقيقة الداخليّة معيارًا للتثبّت في نتائج هذه المحاسبة. لكن ألا تشير كلّ الدلائل على أنّ الجانب السلبي للرسالة عند نيتشه كان متقدّمًا على الجانب السعيد للرسالة (البشرى) بكيفيّة

تستعصي على التعويض، في حين ظلّت كلّ محاولات الدفع بالجانب الثاني إلى المقدّمة لا تمثّل سوى اندفاعات آنيّة ونوعًا من التنويم الذاتي العابر؟ ألا يمثّل نيتشه لهذا الغرض بالتحديد نموذج المفكّر الحداثيّ، إذا ما اعتبرنا أنّ هذا الأخير يفصح عن نفسه عبر الإقرار باستحالة ملاحقة الواقع بوسيلة التعديلات اللاواقعيّة؟ ألا تتحدّد الحداثة بذلك الوعي المسبَق بجسامة الوقائع التي لا يمثّل خطاب الفنون وحقوق الإنسان تجاهها سوى نوع من التعويض وعمل النجدة الأوّليّة؟ وهل غدا عالم اليوم، بسبب الإعتراف بتفوّق العناصر المرضيّة التي تستعصي على العلاج، عاجزًا عن التكلّم بالخطابات الإحتفاليّة المتفائلة؟

أمّا بالنسبة لنيتشة، فإنّه كان يدرك جيّدًا أنّه سيظلّ ،إلى أن يأتي ما يخالف ذلك، القارئ الوحيد المتفاعل مع *زرادشت*؛ فـ«إنجيلـه» الخامس، كما يؤكّد هو بقولة لا تجانب الصواب، «قاتم وغامض ومضحك بالنسبة "لأيّ أحد"»، وذلك ليس بسبب غوايته فحسب؛ فمن غير المنتظر أن يتحوّل مثل هذا النصّ الذي سيجرّ كلّ متحدّث به وداعٍ

إليه إلى وضع الأضحوكة، إلى منطلق لمنظومة امتداحيّة تمكّن الداعي إليها من الدخول في لعبة رابحة، إذ أنّ كل من سيتحدّث باسمه، مدنيًا أو أكاديميًا كان، سيضع نفسه في موقع أكثر صعوبة من موضع من يفعل الشيء ذاته باسم الأناجيل الأربعة غير المشذّبة. ولن تجدي في هذا المضمار مناورات عمل المستحيل: تلك المناورات التي تسعى عبر اللجوء إلى الصيغ المحرّفة والمشذّبة للمقاطع النيتشويّة المجمّعة في شكل شعبويّ مبتذل، إلى ارتجال تأسيس امبراطورية المباهاة Prahl - Reich. ليس هناك من مقصّ بإمكانه أن ينقذ أناشيد زرادشت ويوظفها ضمن اللعبة اللغويّة لحركة التنوير النموذجي. ونيتشة غير المشذّب لا يمكنه أن ينضمّ إلاّ إلى أولئك الضائعين بما فيه الكفاية لكي يجعلوا من مفهوم «الخلاص» مفهومًا خاصًا يعيدون ابتكاره لأنفسهم. وإذا ما افترضنا أنّ نيتشه كان على وعي بهذا الأمر – وذلك ما تثبته المعطيات البيوغرافيّة والأدبيّة معًا– فما الذي يجعله يعتقد إذًا بإنّ عهدًا جديدًا لفنّ الكلام سيبدأ معه؟ كيف كان ينوي المرور من الأضحوكة إلى

المتعالي، ومن المتعالي إلى الحرّ؟ ومن سيكون بإمكانه أن يقتفي أثره؟

لكي نتمكّن من حلّ هذا اللغز علينا أن نتفحّص عن قرب الخطوط الأوّليّة التي يضعها نيتشه لأخلاقيّات السخاء.

III سخاء مطلق

من يُرِدْ أن يخبَر عن قرب نظريَة نيتشه حول السخاء وممارسته لها، عليه أن يتجه باهتمامه أيضا – بل أوّلا وقبل كلّ شيء – إلى مسألة جنون العظمة لديه باعتبارها عنصرًا مميّزًا في الموهبة الخارقة لهذا الكاتب وقدرته على التكلّم عن نفسه وأعماله بنبرة افتخاريّة فائقة. من المحتمل أن نكون هنا أمام أمرٍ كانت تلك العبارة الواردة في «رسالة البشرى» الموجّهة إلى ناشره موظّفة للتدليل عليه: «شيء لا يوجد له من اسم بعد». بل إنّه من الممكن أيضًا أن نحتفظ بالنعتين البديلين الآخرين: «نصّ شعري» و«إنجيل» اللذين يستعملهما للتدليل على الجزء الأوّل من «هكذا تكلّم زرادشت»، كاحتياطي سيساعد في مقاربة التبرّج الإدّعائي لنيتشة. جنون عظمة إذًا، أو شعر، أو شيء لا يوجد له من اسم بعد: سيكون بإمكان المرء أن ينهل من خزّانٍ احتياطيٍّ من التعبيرات البديلة المعروضة هنا كي لا

يتوقّف عند أوّل نعت قد يخطر له عفويًا. وهكذا إنّ الإنارة المكثّفة التي يلقيها نيتشه على نفسه من خلال فخريَاته الإستعراضيّة لهي من المبالغة بقدر يجعل حتّى أكثر القرّاء تحرّرا وأطيبهم نيّة، بل وحتّى الموالين بعماء يحوّلون نظرهم عن ذلك الموقع، كما لو كانوا يودّون أنهم لم يروا ولم يصدّقوا ما كانت ترسمه الحروف على الورق أمام أعينهم. إنّه ليس بإمكان المرء أن يحدّق في الشمس، ولا في المديح الذّاتي للمجانين، دون أن يحوّل عينيه، لذلك نضطرّ إلى وضع النظّارات الواقية لدى قراءتنا لهذه الإنفلاتات المدائحيّة التي لا تحتمل. نعتّم قليلا ما لا تستطيع العين أن تنظر إليه دون أن تضطر لتحويل نظرها؛ نفعل ذلك حياء، أو رأفة بذلك المنفلت من عقاله – وهو ما يعني الأمر نفسه تقريبًا – كي لا نؤاخذ المتهيّج المتهوّر ولا نستعمل مشهد عريه المستعرَض ضدّه. أليس من باب اللياقة المتعارفة لدى محبّي نيتشه بالنهاية أن نتجنّب ذكر مثل هذه الأشياء؟ لكنّنا سندع اليوم أعراف المحبّين جانبًا:

«أن ترى من خلال كتاباتي أنك بحضرة عالم

نفسانيّ، عالم نفسانيّ ليس له من مثيل، فتلك على أغلب الظنّ هي أولى قناعة ينبغي أن يتوصّل إليها قارئ جيّد - قارئ من ذلك الصنف الذي أستحقّ، قادر على قراءتي بالطريقة التي كان الفيلولوجيون القدامي يقرؤون بها هوراس.»[٢٤] «هل يوجد في نهاية القرن التاسع عشر من يمتلك فهمًا دقيقًا لما كان شعراء العصور العظيمة يسمّونه بالقريحة؟ إن لا، فسأشرح لكم ذلك الآن... هذه هي تجربتي... ولا أشكّ في أنّه على المرء أن يعود آلاف السنين إلى الوراء كيما يعثر على أحد يحقّ له أن يقول: «إنّها تجربتي أنا أيضًا.»[٢٥] «من بين كتاباتي كلّها يحتلّ زرادشتي موقعًا خاصًّا. من خلاله تقدّمت إلى البشريّة بأكبر هديّة لم يسبق لها أن مُنحت مثلها إلى حدّ الآن.»[٢٦] «لندع الشعراء إذًا جانبًا؛ فإنّه ليبدو لي أنّه لم يسبق أن خلق شيء بمثل هذه القوّة المتدفّقة؛ إنّ مفهومي لـ «الديونيزي» قد غدا هنا عملا عظيمًا hoechste That (acte d ecla)، مقارنة به ستبدو كلّ

الأعمال البشريّة الأخرى بائسة ومقيّدة. وأن يكون من غير المتيسّر لواحد يدعى غوتة، أو شكسبير أن يتنفّس لحظة واحدة من هواء هذه الصّبوة وهذه الأعالي الهائلة.... فهذا أقلّ ما في الأمر، وليس هناك على أيّة حال من مصطلح بوسعه أن يخبر عن مدى البعد والوحدة اللازورديّة التي يعيش داخلها هذا العمل... ولو اجتمعت خصال وعقول الأنفس الراقية كلّها لما استطاعت، جميعها معًا، أن تأتي بخطبة واحدة من خطب زرادشت... لم يكن لأحد قبل هذا أن يعرف ما السمو، وما العمق، وأقلّ من ذلك ما الحقيقة... لم يكن هنالك من حكمة، ولا بحث في أعماق الروح ولا فنّ خطابة قبل زرادشت.»[٢٧] «منذ حين كتبت لي صديقة قديمة بأنّها تضحك منّي الآن.. وهذا في ظرف أحمل فيه عبء مسؤوليّة جسيمة لا توصف – حيث ما من كلمة بوسعها أن تكون رقيقة بالقدر المطلوب تجاهي، ولا من نظرة لتعبّر عن المهابة التي أستحقّ، فأنا أحمل على كتفيّ

قدَر الإنسانيّة.»[٢٨] «وإذا ما قسْتُ نفسي بحسب ما أنا قادر عليه من الأعمال... فإنَني سأكون مؤهَلا أكثر من أيّ أحد من الفانين للقب العظمة.»[٢٩] «قدري هو الذي يريد أن أكون أوّل إنسان نبيل، وأن أعي نفسي كنقيض لأكاذيب الآلاف من السنين... لقد كنت أوّل من اكتشف الحقيقة لأنّني أستطعت أن أرى الكذب ككذب – اشتممْته... إنّني حامل بشرى ليس له من مثيل في السابق... الآن فقط، وبدءاً منّي أنا ستكون هناك سياسة عظيمة فوق الأرض.»[٣٠]

أريد أن أقترح عليكم أن نستمرّ قليلا مع هذه الجمل التي يصعب تحمّلها، وأن نزيح شيئًا فشيئًا النظّارات الواقية التي ظلّت لمدّة قرن من الزّمن تحمي القارئ من مواجهة هذا الدفق الفاحش من المديح الذاتي والموضعة الذّاتيّة. إنّني أقوم بهذا المقترح من منطلق افتراض أنّنا لسنا هنا إزاء ظاهرة تحرّر من الرّوادع بالمفهوم المتداول، أو عمليّة انسياق هذيانيّ مرَضيّ، أو آثار اندفاع صبيانيّ كما رأى ذلك كارل جاسبرس وتوماس مان. اطلاقًا من فلسفة اللغة

المذكورة آنفًا يبدو معقولا الإفتراض بحصول انفجار في السدّ الذي كانت تنحبس وراءه طاقات الخطاب الفخريّ داخل فعاليات الثقافات العليا السائدة حتّى الآن. إنّنا نحظى اليوم بمسافة أمنيّة لقرن من الزمن ستسمح لنا بمعاينة هذا الإنفجار في الوعي الذاتي من موقع مناسب للمراقبة. وعلاوة على ذلك فإنّه بإمكاننا اليوم الإستفادة من التحوّل الذهني الواسع الذي اخترق القرن العشرين بكلّيته؛ تحوّل باتجاه تسامح أكبر تجاه الإفصاح عن النزوعات النرجسيّة. ثمّ إنّ نيتشه ذاته يعرض علينا في كتابه Ecce Homo إمكانية تناول مبالغاته الديونيزيّة من زاوية الأضحوكة الطوعيّة. كل هذه الأمور من شأنها أن تسهّل علينا دحض الحرج وإبداء مزيد من الشجاعة في تناول الخطاب الحماسيّ.

أودّ إذًا أن أقدّم الإفتراض بأنّ «نرجسيّة» نيتشه ليست ظاهرة نفسانيّة فرديّة بقدر ما هي قطيعة في التاريخ اللغوي الأوروبيّ. إنّها تعني بالأساس الإعلان الصريح عن الطبيعة الحقيقيّة للذات لكيان الكتابة وللخطاب الأدبي.

إنّ الحدث الخطابي الذي يحمل اسم نيتشه يتميّز بكونه قد انتهك الفواصل التي تقيمها الثقافات العليا بين رسالة البشرى والإحتفاء بالذات؛ هكذا يتمّ الكشف عمّا يقوم به الكاتب الحديث في الحقيقة: وضع النصّ في خدمة الغاية الذاتيّة. عبر هذا العمل غدا النظام المسيّر لاشتغال الخطابات المدائحيّة واللاعقلانيّة وما ضربه على المديح الذاتي من تحريم، يجد نفسه مطروحًا دفعة واحدة للنقاش. لقد وجد هذا الإنقلاب شرعيّة له من خلال كتابات نيتشه النقديّة للميتافيزيقا والأخلاق حيث تمّ كشف الغطاء عن مجمل نظام الكذب الذي يتأسّس عليه المديح الذاتي غير المباشر وآليات التزييف المتجسّدة في مقولات من نوع: «من يحطّ من شأنه الخاص ينال الرّفعة» أو servir et disparaitre (إخدمْ واختفِ). وإذا ما صحّ أنّ فصل المديح عن الذّات لا يمثّل سوى تأجيل يحدثه الإضطغان، وتأخير مستمرّ للّحظة التي سيحقّ فيها لصاحب القول أن يقول لكينونته: أمكثي كي أمجّدك، فإنّه سيحقّ لنا إذًا أن نفهم انتهاك نيتشه لمواضعات الحياء على أنّه عمل مراجعة

وتعديل بموجبه وقع نقض المنظومة التقليديّة لنكران الذّات وتقويضها من الأساس تقريبًا. وعلى المرء أن يعود إلى صوفيّي أواخر العصر الوسيط كي يلتقي بظواهر مشابهة، كانت في هيأتها الهائلة والمربِكة تسعى إلى إعادة خلق الوسيلة التي ستمكّن من ربط الصلة الأكثر مباشرة بين الذّات والخطاب المدائحي. إنّ ما يهمّ نيتشه ليس ذلك الإحتفاء اللامشروط بالذّات كمجرّد كينونة ومن دون معايير محدّدة: إنّما هو يتمسّك بكلّ قوّة بالمفهوم القائل بأنّه على الكينونة أن تستحقّ الإحتفاء، أو لنقل أن تنمو وتتطوّر داخل ذلك الإحتفاء، و ليس هنالك من الحداثيين من دعا مثله إلى الـ adaequqtio iubilationis et intellectus (التناسب الضروري بين الإنشاد الإحتفائي والقدرة الذهنيّة). وإذ لا بدّ من تناسب بين الكينونة الذّاتيّة وخطاب مدائحيّ ما، فإنّه على الكينونة إذًا أن تكون قد حقّقت من الإرتقاء ما يجعل الحديثَ عنها بأفضل ما يكون الحديثُ أمرًا ممكنًا. ولئن كان الوجود في حدّ ذاته يمثّل إمكانيّة قبليّة a priori للفخر، فإنّ الخطاب الفخري لا يمكنه

أن يصبح مشروعًا من وجهة النظر الثقافيةّ إلاّ بعديًا a posteriori. يكمن الرابط بين الإمكانيّة وتحقّقها في «الوله الذاتي»؛ تلك الخصلة الكبرى الأكثر عرضة للتشويه على مدى الزمن، وبين طيّاتها ظلّت أفضل الإمكانات الإنسانيّة مغمورة ومجهولة. المولّهون بالذّات، لكونهم من نبض الوله بالعمل هم الذين سيحظون بالتكريس والإشادة من قبل الفلسفة النيتشويّة. إنّ المديح الذاتي اللاحق (البعديّ) يكوّن، في هيأة «صورة شخصيّة»، الخلاصة المركّبة من الحدس المسبّق بالصيرورة الذاتيّة واكتمال الوله الذّاتي؛ خلاصة لـ: كيف يصير المرء على ما هو عليه وذلك بالتقاط صدفة وجود الـ «أناس واستغلالها على الوجه المناسب. ولعلّ هذه الصورة الذاتيّة «المكتملة» تغدو «متحقّقة» في اللحظة التي يتمكّن المرء فيها من أن يثبت من خلال نظرة إلى الوراء يلقيها على مجمل حياته المعاشة صحّة الطموحات المرسومة مسبّقا بخصوص المصير المنتظر» (ما يمكن أن يكون). هذه اللحظة هي التي تتحدّث عنها تلك الفقرة الإضافيّة المنفصلة التي ضمّنها

نيتشه لمقدّمة كتاب Ecce homo :

«في هذا اليوم الذي بلغ الإكتمال؛ حيث الأشياء جميعها في أوج النضج، وليس العنب وحده يتخضّب بالسُّمرة، وقع على حياتي شعاع من الشمس: نظرت إلى الوراء، ونظرت إلى الأمام، وإذا أمامي ما لم أر أبدًا من الأشياء الكثيرة والجيّدة معًا... .. كيف يمكنني أن لا أكون شكورًا لحياتي بكلّيتها إذًا؟»

كلّما استطاعت الحياة أن ترتقي إلى مستوى احتمالاتها الكبرى ،كلّما كان بإمكان المديح الذّاتي أن ينتعش بصفة مماثلة: مرّة أخرى ينهض الأثر لامتداح المؤلّف الذي كان على وشك أن يضمحلّ في أثره. هذا التوافق هو بالذات ما يكوّن «فضيحة» القول: ذلك الإطراء اللامحدود على ثراء التجربة؛ ما ظهر منه وما اضمحلّ وتلاشى، وذلك التقريض الذاتي المحتفي بالأعمال المنجزة، وذلك الذوبان الكلّي للحياة في الترسّبات الخطابيّة المضيئة التي تمكث كأعمال لغويّة؛ إنّها هي التي تكوّن الحدث الشنائعيّ

المضادّ للحدث الشنائعي الذي دعا إليه بولس بخصوص حادثة الصّلب حيث تمّ تدعيم الحواجز التي قطعت الصلة بين الذّات وخطاب المديح.•

أن يكون نيتشه قد استطاع أن يقدّر بصفة مناسبة التورّط السياسي اللغويّ المرتبط بالإحراجات اللاحقة المتعلّقة بخطابه، وأن يفسّر ذلك تاريخيًّا بأسلوب راق، فذلك هو ما نستشفّه من خلال الظهور الإستعراضي لعبارة

• إنّ ما يؤاخذ به نيتشه القديس بولس هو تأويله لحادثة الصليب وموت المسيح على أنّها تكفير عن خطايا البشريّة (أنظر على سبيل المثال رسالة بولس إلى أهل رومية، في أخبار الرسل من العهد الجديد). يوضّح جيل دولوز في كتاب «نيتشة والفلسفة»: «يستولي القديس بولس على موت المسيح ويعطي تفسيرًا له يشكّل المسيحيّة... مات المسيح في رأيه من أجل خطايانا! ولقد قدّم الدّائن ابنه شخصيًّا لشدّة ما كان دين المدين هائلا. لا يقتل الأب ابنه ليجعله مستقلاً، بل من أجلنا وبسببنا.. يرفع الله ابنه على الصليب لفعل المحبّة: وسوف نردّ على هذه المحبّة بقدر ما سنحسّ بأنفسنا مذنبين بهذا الموت، وبقدر ما نعوّض عن هذا الذنب عبر اتهام أنفسنا، ودفع فوائد الدّين. وفي ظلّ محبّة الله، والتضحية بابنه، تصبح الحياة ارتكاسيّة بكاملها... تموت الحياة، لكنّها تبعث مجدّدا بوصفها ارتكاسيّة...»

لكن كيف ينظر نيتشه إلى هذا الأمر؟ لنستمع إليه في «المسيح الدجّال»: «ذلك «المبشّر المرح» (يقصد يسوع المسيح) مات كما عاش، وكما كان يكرر: لا من أجل «خلاص البشريّة»، بل لكي يرينا كيف على المرء أن يعيش»... «إنه لا يقاوم ولايدافع عن حقه، لا يخطو خطوة واحدة كي يبعد عنه المحنة، بل يتحدّاها.. يصلّي، ويتألّم ويحبّ مع أولئك الذين يسيئون إليه.س ... «إنّ المسيح لم يكن ليرغب في شيء آخر بموته غير إعطاء الدليل الساطع على صحّة مذهبه». (أنظر المقاطع ٣٣و٣٤و٣٥) (المترجم).

«Cynismus» داخل قاموس كتاباته المتأخرة". لم يكن خفيًا

• إحالة على الكلبيّة كمدرسة فلسفيّة عريقة قائمة على الإستهزاء بالمواضعات الإجتماعيّة والسياسيّة والعرفيّة المتداولة، وعلى الترفع والسخرية. وهي مذهب ديوجانس الذي ظلّ يعيش داخل برميل: مذهب تبتّل واحتقار للثروة والجاه ويدعو إلى اتباع الفضيلة التي تزدري بالمواضعات الإجتماعيّة والقيم الأخلاقيّة المتداولة والقوانين الوضعيّة والأعراف والرّأي العام. وقد سمّي الرعين الأوّل من متّبعي هذا المذهب بالكلبيّين لاجتماعهم في مكان يسمّى Kyon ، بل وكذلك بسبب الطابع اللاذع لنقدهم وسخريتهم ومخالفتهم للمواضعات دون حياء. لم أجد في اللغة العربيّة مصطلحا محدّدًا يفيد المعنى في أبعاده المتعدّدة، إذ يمكن أن تفيد عبارة zynismus (كما يكتبها سلوتردايك) أو Cynismus (كما يكتبها نيتشه) السخرية اللاذعة، والتهكّم، والصلافة، والوقاحة، وذلك حسب سياق الإستعمال. يستعمل نيتشه هذا المصطلح في المعنى الأصلي الذي يعود إلى فجر الفلسفة، إذ تلك الفلسفة الإغريقيّة لما قبل أرسطوهي مرجعه الرئيس. ويبدو أنه قد وجد في مذهب الكلبيّة ما يوافق غرضه الفلسفي كـ«مقوّض لكلّ القيم» وداعية لقيم جديدة تنطلق من مبدأ الحرمة الذاتيّة واستقلاليّة الفرد. إلاّ أنّ بيتر سلوتردايك سيوسّع من استعمال المصطلح ويفتحه على أبعاده ودلالاته المتعدّدة والمتنوّعة، بل والمتناقضة من حيث القيمة. إنه ينطلق هو أيضًا من ديوجانس كممثل أوّل لهذا المذهب، بل الذي يمثّله أفضل من غيره (يضيف إليه لوقيانوس)، لكنّه يفتح دلالات الظاهرة على بعدها الثاني عندما يقول: «إنّ ديوجانس الذي نحن بصدده الآن ليس ذلك الحالم الشاعري المسالم من داخل برميل، بل هو كلب، يعضّ عندما تكون له رغبة في ذلك» محيلا في ذلك على جملة لديوجانس يقول فيها: «من يسلّمني شيئًا أتودّد إليه، ومن لا يسلّمني شيئًا أنبح في وجهه، أمّا الوغد فاعضّه»، كما تجدر الإشارة إلى أنّ عبارة العضّ beissen وبخاصّة النعت المشتق منها bissig تفيد في اللغة الألمانيّة معنى اللذع واللاذع: من هنا سيكون «العاض» ناقدًا لاذعا، أو مستهزئا وساخرًا لاذعًا. لذلك سيضيف سلوتردايك إلى الكلبيّين الأصليّين: ديوجانس ولوقيانوس قائمة إضافية، أو ثانويّة تضم أنتيستانس وأريسطوفانس ورابليه، وصانشو بانشا (وليس سرفانتس!) وفرنسوا فيليون، وفلوبير ونيتشة وسيوران ويوسّع هذه القائمة أكثر حتّى يلتقي فيها حتّى «المتضادّون» حسب عبارته : أويلنشبيغل مع روشيليو، ماكيافيلي مع «ابن أخت رامو».... يجمع سلوتردايك إذًا تحت يافطة الصلافة – الكلبيّة بين أولئك التي تدوّي ضحكاتهم الساخرة وأصحاب التكشيرات أو الضحكة الصفراء. ثمّ يوسع من دائرة الكلبيّة ليضمّ إليها الممتعضين من مضاعفات تطوّر المجتمعات الصناعية وعلى رأسهم مدرسة «النظريّة النقديّة»: أو كما يحلو له تسميتها بـ «النقد الإديولوجي» أو «الوعي التنويري الزائف» – أنظر مؤلّفه الرئيس:
Krtik der Zynischen Vernunft, 2 Bände, Suhrkamp Verlag Frankfurtam Main 1983 (المترجم)

على نيتشه أنّ صيحته الحربيّة المعلنة عن «تقويض كلّ القيم» تحيل على شذرة من الفلسفة الكلبيّة التي تخبر عنها الإستراتيجيّة الرفضيّة لديوجانس بعبارة: «إعادة ضرب العملة»؛ وكان على وعي بأنّ تدخّلاته من خلال كتابات سنة ١٨٨٨ لا بدّ أن يتم تكريسها كظهور جديد لـ«سقراط المستعِر». وبالفعل فقد كان ذلك هو شأنه ومهمّته: قام بتقويض كلّ قيم الردع والإحراج، ومراجعة السلوكات اللاعقلانية ورفع الحواجز المضروبة منذ عصور بأكملها بين الحياة المبدعة وطاقات المديح الذّاتي الكامنة فيها. وهكذا غدا بإمكانه أن يكتب إلى الناقد الدانماركي في ٢٠ من نوفمبر ١٨٨٨:

«لقد رويت الآن سيرتي بصلافة Cynismus ستغدو تاريخيّةً؛ هذا الكتاب يحمل اسم .Ecce homo»

وفي فصل: «لماذا كتبت كتبًا جيّدة هكذا» من مؤلّفه المذكور يقول نيتشه عن كتاباته:

«إنّها تبلغ هنا وهناك أرقى ما تُوصّل إليه على الأرض، أي الصلافة.»[٣١]

إنّ عبارة Cynismus تمضي في هذه المواقع في اتجاهين: في الأوّل تشير إلى الإرتقاء بمسائل النظام الغذائيّ والصحيّ إلى مستوى إنجيليّ (بروتستانتي)؛ تحوّلٌ لُخَص داخله جزء هامّ من القرنين التاسع عشر والعشرين، كما حدّد الإتّجاه العام للقرن الواحد والعشرين. وفي الإتجاه الثاني تشير إلى الإندماج الحاصل بين رسالة البشرى (النبأ السعيد) وطاقات الإمتداح الذّاتي. لذلك ستغدو عبارتا «إنجيلي» Cynisch ابتداء من الآن حاملتين لنفس الدلالة؛ وفي ذلك الحيّز الذي يتقاطع فيه مدلولاهما ستعبّران معًا عمّا يفعله المؤلّف الحديث: أن يستعرض نفسه، أن يتحوّل إلى نصّ، وأن يجعل من نفسه شخصًا لا يطاق. يقول نيتشه: «إنّني لم أقم بخطوة علنيّة واحدة لم تكن مورّطة: وذلك هو معيار العمل الصحيح في نظري.»[٣٢] إنّ الإطراء الذّاتي للحياة على نفسها وهي تستجيب إثباتيًّا لذاتها وتنجز ذاتها كحصيلة جهد ذاتيّ ، منظورًا إليه تحت هذه الإضاءة هو الشكلّ الخطابي الأصيل الوحيد الذي يستحقّ لقب الإنجيليّ. وهو كرسالة يعدّ بكلّ بساطة أمرًا جيّدًا، لأنّه

يمثّل – وبإمكانه أن يمثّل، إخبارًا عن المنجَز واستفادة منه؛ إذ هو يتكلّم لغة حياة لا تهتف بالوعود فقط، بل وتستطيع كذلك أن تتقبّل نفسها بالإستحسان؛ لغة تغدو أكثر أصالة كلّما غدت المقاومة التي يتعرّض إليها هذا الإثبات أكثر حدّة. بإمكاننا إذًا أن ننعت الآثار اللغويّة لمثل هذه الحياة بالسبينوزيّة، لأنّها «تعبير»؛ بمعنى أنّها تخدم غاية الإعلان عن الطاقة الكامنة في الوجود. إنّها تكسر قيود الثنائيّة القيميّة التقليديّة التي كانت تفرض على المتكلّم أن يختار أحد أمرين؛ إمّا تمجيد الله وما يتبع ذلك من نفي للذات – الأنا الكريهة الجديرة بالنبذ، وإمّا الثناء على الذات وهو أمر قد لا ينظر إليه تقليديًّا إلاّ كتلبيس إبليسيّ وجحود لله.

من هذا الموقع الخِطابي الجديد لا يطرح نيتشه نفسه كمخلّص شاعري، بل كمجدّد ومُثْرٍ من نوع جديد. إنَه بالإمكان اعتباره الواهب الحقيقيَ الأوّل، شريطة أن يُمنح فنّ العطاء لديه تفسيرًا خاصًا يتجاوز المقولات المعهودة

بخصوص الهبات والهدايا المسمومة. إنّ التعهّد النيتشويّ بالإنسانيّة يقوم على اعتقاد مفاده أنّ وصل الأفراد بالهبات المعتادة من شأنه أن يورّطهم داخل روابط اقتصاديّة وضيعة سيظلّ الإعلاء من شأن المانح ضمنها مرفوقًا بصفة مباشرة بانحطاط شأن المتسلّم. وبالتالي فإن من يروم تقديم هديّة نبيلة لا يمكن له أن يحقّق ذلك إلاّ عن طريق هبة لا تورّط في الدّين ولا تنتظر مقابلا. وبالتالي فإنّ الهبة الوحيدة التي تفي بهذا الغرض هي تلك التي تتمثّل في إسناد لقب النبالة، والتي تعفي الحامل الجديد للّقب من الإلتزام بالإحالة على المانح. وسيبتدع نيتشه لهذا الغرض ضربا من هبات الـ take-and-run (خذ وامض) ترِد منثورة في كتاباته في شكل صيغ حِكَميّة، وأشعار وأقوال برهانيّة. ومن بعده سيغدو بإمكان كلّ من سيقدم على المنح بدون مقابل أن يكون نبيلا. غير أنّ لقب النبالة في حدّ ذاته سيكون استفزازيًا، فما يمنحه المتعهّد هو في الواقع ما يناقض لقبًا يمتلكه المرء ويتصرّف فيه. والنبيل الذي نحن بصدد الحديث عنه هنا لا يمكن التعرّف

عليه في أيّ شكل أو صورة من صور الأرستقراطيّة التاريخيّة. إنّها الصياغة النيتشويّة الجديدة الحاسمة للقيم؛ تلك التي تعتبر أنّه لم توجد في تاريخ البشريّة بعد أيّ نبالة حقيقيّة – مع إمكانيّة استثناء منظومة البلاهة الرقيقة للظاهرة المسيحيّة والعافية الواثقة لبوذا. إلاّ أنّ هذين المثالين أيضًا يجسّدان في نظره شكلين من السخاء المنقوص، لكونهما منغرسيْن في انحسار الـ(الحياة النشطة) ,vita activa وهما لا ينتظران سوى أن يقع تجاوزهما عبر أشكال معيشيّة خلاّقة تستجيب إثباتيًا إلى العالم الدنيويّ – انطلاقًا من هذه الأشكال المعيشيّة ستنبع الوظيفة الأخلاقيّة للفنّ كسائس لمجمل التاريخ المستقبليّ. إنّ ما ظل يُعرف تاريخيًا بالنبيل لا يملك سوى مقدار تافه شبه منعدم من القيمة التي يمكن اعتمادها كقدوة أو معيار، ذلك أنّ ما كان يُعتبر نبيلا في العصر الإقطاعي لم يعدُ كونه مجرّد نذالة محميّة من قبل السلطة: «الرّعاع فوق، الرّعاع تحت»؛ هذه العبارة التي ينطق بها الشحّاذ الطوعيّ في الجزء الرابع من كتاب زرادشت تجاه

الأغنياء وأصحاب الجاه من بني عصره تنسحب كذلك بمفعول رجعيّ على التشخيص التاريخيّ الذي كان يقوم به نيتشه. سيغدو من المتعذّر إذًا إضفاء شرعيّة على لقب النبالة من خلال الإنتماء والأصل، إذا ما أصبح إسناد هذا اللقب متوقّفًا على تأصّل عمل ما أو فكرة في تربة الطاقة الخالية من سقم المَهانة، والرّانية إلى أهداف بعيدة؛ فالنبالة انحياز إلى المستقبل. إنّ جانب الإبداع في هديّة نيتشه يتمثّل في الإستفزاز للنسج على منواله، حيث يغدو بالإمكان تنشيط المانح من جهة طاقاته العطائيّة؛ أي من جهة ثروته القادرة على فتح أفق مستقبليّة أكثر ثراءً. إنّه معلّم سخاء من حيث هو يبثّ جرثومة الثراء في متقبّل الهبة الذي لم يعد يرى من موجب لاكتساب ذلك الثراء إلاّ بالنظر إلى إمكانيّة تبديده.•

من حقّ الذي يمنح الإستفزازَ على المنح إذًا أن يرى منذ البدء نظاما جديدًا لسلسلة التفاعلات الأخلاقيّة؛ من خلاله يتمّ تأويل الزمن بكلّيته تأويلا جديدًا: يتّخذ التاريخ

• «تكلّمت عن قربان وعطيّة عسل! لم يكن ذلك سوى حيلة من حيلي الكلاميّة، وحمقًا نافعا في الواقع... أيّ قربان؟! إنّني أبذّر ما يمنح لي، أنا المبذّر بألف يد: كيف يحقّ لي إذًا أن أسمّي ذلك – قربانًا!»: «هكذا تكلّم زرادشت»، «هبة العسل» –(المترجم).

منظورًا إليه كحيّز لتكاثر السخاء محتوى يقع في ما وراء المنظومة السببيّة السائدة إلى حدّ الآن، ويكون مستقبل الإنسانيّة بالتالي اختبارا لإمكانيّة استئصال الإضطغان كأكبر سلطة تاريخيّة. هكذا، وفي إطار الإتّجاه المتصاعد لفضيلة السخاء، تحتفي الحياة بنفسها كمجال تكاثرِ لامتناهٍ لإمكانيّات العطاء، وتجد مشروعيّة لهذا المديح الذّاتي الشّكور في كونها شريكًا فاعلا في فعل السخاء. ينحلّ التاريخ في زمن اقتصاد التداين وزمن السخاء؛ وفيما يكون الزّمن الأوّل منشغلا على الدّوام بالعودة وتسديد الدّين لا ينشغل الثاني سوى بالمضيّ قدمًا في العطاء، وستؤرخ كلّ حياة لنفسها مستقبلا، إن عن وعي أو دون وعي، من منطلق هذا المعيار: «عاش المرء قبله، عاش المرء من بعده...»

سيكون من المفيد أن نتناول عن قرب التشكّل البدئيّ لسلسلة المنظومة السخائيّة التي دشّنها نيتشه، لأنّها هي التي ستمكّننا من التعرّف على شروط الإلتحاق والإنضمام؛ ومنها سيمكننا العثور على المعيار الوحيد

الذي له صلوحيّة تمييز الإنتماء الشرعي إلى نيتشه عن ذلك الذي لا شرعيّة له. من الضروري أن تنطلق السلسلة الجديدة «المنفلتة من كلّ عقال» بعمليّة تبذير غير مقيّدة، ذلك أنّ المانح لا يمكنه أن يكسر طوق العقل الإدّخاري إلاّ عبر عمليّة تبديد ذاتيّ صرف. إنّ التبذير اللامحسوب لوحده يمتلك من العفويّة وطاقات التملّص والإفلات ما يجعله قادرا على التخلّص من جاذبيّة حقل الجشع وحساباته. المدّخرون والرأسماليون ينتظرون على الدّوام مردودًا يفوق ما استثمروه، بينما يجد المانح متعته ورضاه في البذل دون اعتبار لـ«المحاصيل»؛ وينطبق الأمر هنا على الإستثمار كما على المنحة. إنّ ما يسمّيه نيتشه ببراءة الصيرورة* إنّما يعني في الجوهر مجانيّة التبذير وكذلك أيضًا مجانية الإثراء الذي لا يُسعى إليه إلاّ بهدف تنمية إمكانية التبديد. يتحقّق الإندفاع إلى السخاء إذًا عبر الإستجابة الإثباتيّة للثراء، بالنسبة للذّات كما بالنسبة للآخرين، باعتباره الشّرط الضروريّ للسخاء. وإذا ما كان

* هناك لعب على الألفاظ هنا إذ أن عبارة Unschuld في اللغة الألمانيّة تعني البراءة كما تعني أيضا انعدام الدَّين، تمامًا مثل عبارة Schuld التي تعني الذّنب كما تعني الدّيْن. وبالتالي فإنّه يمكن فهم عبارة البراءة هنا في معنى المجانيّة، أي الفعل الذي لا ينجرّ عنه إلزام الغير بديْن.

هناك منبع أوّل للسّخاء فلا بدّ أن يتمثّل في اللحظة التي سيواجه السخاء المعلَن فيها السخاءَ المكتوم ويستفزّه. وما يميّز فكرة نيتشه بخصوص فنّ العطاء هو رأيه القائل بأنّه ينبغي على المانح، إذا غدا بمستطاعه أن لا يظلّ متخفّيا – وهذا التخفّي على أيّة حال أمر مستحيل مسبّقا بالنسبة لكاتب – أن لا يحاول الظهور بمظهر الترفّع الزائف بدعوى أنّ الظهور سيجعله يرفع من نفسه ويتبجّح على المتلقّي بما من شأنه أن يجعله يشعر بالإهانة، بل على العكس من ذلك فإنّه ينبغي عليه وهو يشجّع المتقبّل على تسلّم الهبة أن يضع الإصبع على نقائصه وهشاشة بنيته دون أن ينتج عن ذلك تقليل من قيمة الهديّة. عندها فقط تتحقّق «البراعة في فنّ الطيبة».[٣٢]

لذلك فإنّ قليلا من الغرور، وقليلا من اللفّ داخل دائرة النرجسيّة ستكون ضروريّة في هذا المضمار. فالإحتفاء الإثباتيّ بالذّات سيحتضن في شموليّته الأشياء اليوميّة التي كان نظام الفكر الميتافيزيقي يحقّر من شأنها، وسيضمّها إلى دائرة الإمتنان للهبة المتمثّلة في القدرة

على العطاء. وإنّه بإمكان نيتشه التنويري أن يظلّ ضمن هذا التمرين وفيًا لتقليد القرن التاسع عشر المتمثّل في فهم الكاتب وفقًا لمعطيات محيطه الإجتماعيّ؛ حتّى أنّه إذا ما غدا الكاتب خالدًا فإنّ سلوكاته – عاداته الهجينة – أيضًا ستدخل الخلود؛ وعندما يتدخَل زرادشت بلغته الإثباتيَة للذّات والعالم فإنّ هذه الأخيرة ستنقل حتمًا ضغوطاتها الإستفزازيّة عبر شكلها الإفتخاريّ الذي «لا يعرف الحياء». إنّ الرجّة التي تحدثها أقوال نيتشه وعباراته الحادّة التي تبدو نظرا لهيأتها الشكليّة مثل أوامر صارمة ستفعل لدى القارئ القابل للإستفزاز بمثابة إهانة علاجيّة تستدعي لديه ردّة فعل حَصانيّة. وهو ما يعادل عمليّة تلقيح على المستوى المعنويّ؛ من كان بدوره مانحا بطريقة أو بأخرى فإنّه سوف لن يحتاج إلى نيتشه، أمّا من لم يبلغ هذه الحالة فسيكون بإمكانه أن يخبر كيف ينقل إليه نيتشه عدوى تذكّر إمكانيّة السخاء؛ عدوى تستحثّ القارئ وتخرجه من حالة التقوقع على الذّات إذا ما كان هذا الأخير يمتلك قدرًا من الإرادة والقدرة على ولوج فضاء

السمعة النبيلة. أمّا إذا ما كان غير المتقبّلين للهبة منشغلين بأعمال أخرى فذلك أمر يظلّ هو أيضًا مقبولا على العموم. إذ الدافع المحرّك لـ«الفضيلة الواهبة» مولّد أيضًا لمنبع التعدّديّة التي تمضي إلى ما وراء الإنتظارات المماثلاتيّة. إنّ ذلك من طبيعة الكرم الإستفزازي أنّه لا يستطيع أن يوجد لوحده، وأقلّ من ذلك أن يريد أن يوجد لوحده. فكرم الواهب بحكم طبيعته ككرم يتأسّس على إنتاج الإختلاف؛ يعني ذلك على خلق المنافسة، وهو بالتالي سيلغي نفسه إذا ما ادّعى لنفسه احتكارا ما. ولكي يستطيع أن يكون ما يريد لنفسه أن يكون فإنّه مضطرّ لطلب لمزاحمة. إنّه يفضّل وضع نفسه في موضع المرفوض على أن يكون في وضع المقلّد التابع. من هنا يجد الكريمون أنفسهم في تناقض معه الخيّرين الذين يطلق عليهم نيتشه، وهو محقّ في ذلك، لقب المنحطّين les decadents لأنّهم – وكما نعلم ذلك منذ «جينيالوجيا الأخلاق» – يلاحقون على الدوام حلمهم في احتكار القيم الفاضلة. هؤلاء سيعتبرون سيّئًا كلّ من يتجرّأ على

مطالبتهم ببرهان على طيبتهم، وكذلك سيبدو لهم إبليسيًا كلّ من يشوّش عليهم إجماعهم ويخرج عن حلقاتهم الإبتزازيّة. الإنحطاط يعني لدى نيتشه التجسيد الأمثل للوضعيّات التي تضمن للضغينة أن تظلّ على الدوام تجد الظروف الملائمة للتعبير عن نفسها. وإنّ ما يدلّ على الإنحطاط هي سيادة العلاقات التي بمقتضاها يكون «المنافق في أعلى المراتب» حسب عبارة نيتشه. «إنّ الخيِّرين ليسوا خيِّرين إلاّ اضطرارًا faute de mieux ، كما أنّ مُثل الإنحطاط تظلّ ممسكة بالسلطة طالما، وسلأنّه لا يوجد من منافس لها»[٣٤]. لذلك فإنّه ينبغي على من يريد أن يُحِلّ الأفضلَ محلّ الخيّر في مجال المسائل الإنجيليّة أن يقبل بالعدّ حتّى الخمسة.

IV شموس وبشر

عندما نلتفت اليوم إلى نيتشه، بعد مائة عام من وفاته، ونحاول أن نحدّد موقعه داخل العصر الذي عاش فيه فإنّنا سندرك أنّه، وبالرغم من كل ادّعاءات الأصالة وافتخاره المتكرّر بأنّه كان الأوّل والمدشّن فيما يخصّ العديد من الأمور الجوهريّة، لا يعدو كونه من وجهات نظر عديدة وسيطة مثلى لتنفيذ اتجاهات ونزوعات كانت ستنتهي إلى الظهور بوجه أو بآخر حتّى من دونه. إنّ مساهمته تتمثّل في أنّه نجح في تحويل المصادفة المسمّاة فريدريك نيتشه إلى حدث يحمل الإسم ذاته – إذا ما افترضنا أنّ الحدث هو القدرة على الصدفة إلى قدر*. يمكن الكلام عن قدر عندما

---

* «فوق كلّ الأشياء هناك السماء الصّدفة، السماء البراءة...» «يقول في هكذا تكلّم زرادشت: القسم الثالث» قبل شروق الشمس». «أقول لكم: دعوا الصدفة تأتي إليّ، إنّها بريئة مثل طفل.» (القسم الثالث، «فوق جبل الزيتون»). تغدو السماء إذًا «طاولة مقدّسة للعبة الزهر ولاعبي الزّهر المقدّسين» (قبل شروق الشمس) وفوق هذه الطاولة الجرأة وإتقان اللعب هما اللتان تحدّدان إثبات الصدفة، غير أنّ ذلك هو ما ينقص أغلبيّة الناس: «خائفين، خجولين مرتبكين، مثل نمر أخطأ قفزته: هكذا أراكم أيها الناس الراقون غالبا ما تنسحبون جانبًا. لقد أخطأتم رمية نرد. ماهمكم أنتم لاعبوا النرد! نّكم لم تتعلّموا اللعب والتحدّي كما ينبغي!» (القسم الرابع، «الإنسان الأرقى») – (المترجم).

يتسنّى لمبدع أن يمسك بحدث، قادم لا محالة، ثمّ يدفع به إلى الوجود ويختم عليه بإسمه. بهذا المعنى فإنّ نيتشه قدر – أو كما يمكن أن يسمّى اليوم مخطّط اتّجاه Trend-Designer. والإتّجاه الذي جسّده وشكّله هو موجة الفردانيّة التي ما انفكّت، منذ الثورة الصناعيّة وانعكاساتها الثقافية المجسّدة في تيّار الرومنطيقيّة، تقتحم جسد المجتمع المدنيّ ولا تتوقّف عن التقدّم. ونحن لا نفهم الفردانيّة كمجرّد صدفة أو تيّار ذهنيّ زمنيّ بالإمكان تفاديه، بل كقطيعة أنثروبولوجيّة سينشأ إثرها صنف إنسانيّ جديد محاط بما يكفي من إمكانيات التواصل والإعلام ووسائل للتخفيف من عبء الأشغال والترويح عن النفس بما يجعله قادرا على التملّص من «شروطه الإجتماعيّة» والتفرّد. داخل الفردانيّة تتمفصل مرحلة اللاإنفصال ما بعد التاريخيّ لـ«الإنسان»: الإنفصال Insulierung الثالث، وذلك بعد أن كان الأول ما قبل التاريخيّ قد أفضى إلى تحرّره من سيطرة الطبيعة، بينما انتهى الإنفصال الثاني – التاريخيّ – إلى تأسيس «سيطرة

الإنسـان علـى الإنسـان».[٣٥] ستظلّ الفردانيّة تنوّع على الدوام من ارتباطاتها ومع كل ما ينتمي إلى العالم الحديث ويحدّد ملامحه: مع التقدّم ومع الرجعيّة، مع البرامج السياسيّة اليساريّة واليمينيّة، مع الفعاليات القوميّة والأخرى المتعدّدة الجنسيّات، مع المشاريع «الذكوريّة» والنسويّة والطفوليّة، مع المواقف المناصرة للتقنية والأخرى المعادية لها، مع الأخلاقيّات الزهديّة والأخرى المتعويّة، مع الرؤى الفنيّة الطلائعيّة والرؤى المحافظة، مع المعالجة التحليليّة والتطهيريّة (الكاثارسيّة)، مع الأسلوب الحياتي الرياضي والأسلوب اللارياضي، مع الإستعداد لإبداء القدرة والنجاعة والإمتناع عن ذلك، مع الإيمان بالنجاح وكذلك مع عدم الإعتقاد به، مع أنماط معيشيّة تزداد ارتباطا بالمسيحيّة ومع أشكال في قطيعة مع المسيحيّة، مع الإنفتاح المعموريّ ومع الإنغلاق المحلّي، مع القيم الإنسانيّة ومع القيم ما بعد الإنسانيّة، مع الأنا التي لا بدّ أن ترافق كلّ تصوّراتي، كما مع انحلال الذات التي تغدو مجرّد حجرة مرايا تعكس أقنعتها

المتعدّدة. الفردانيّة قادرة على الإرتباط بكلّ الجهات، ونيتشة هو مصمّمها ونبيّها.

إنّ ادّعاء نيتشه بأنّه فنّان وأكثر من فنّان يجد تفسيرًا له في مفهومه الحداثيّ الجذري للنجاح؛ بمعنى أنّه لا يكتفي بأن يعرض أعماله في سوق الحاضر، بل يخلق بنفسه تيّار السوق الذي سيدفع بعمله إلى مستوى النجاح. وهو بهذه الطريقة يستبق استراتيجية الحركة الطلائعيّة التي يصفها بوريس غرويس في كتاب له قد غدا الآن من المؤلّفات الكلاسيكيّة، حول الآثار الفنيّة الكاملة لستالين. إنّه على من يريد أن يصبح متحكّما في السوق أن يشتغل قبل كلّ شيء على إيجاد السوق، ولكي ينجح المرء في خلق السوق عليه أن يستبق الأحداث ويحدّد ما الذي سيختاره الحرفاء الكثيرون عندما يعرفون أنّه بوسعهم أن يقرّروا ما الذي يريدونه. لقد فهم نيتشه أنّ الظاهرة الحتميّة القادمة المحدّدة لثقافة الغد ستتمثّل في الحاجة إلى التميّز والإختلاف عن نمط الكتلة. كان يرى بوضوح مباشر أنّ المادّة التي سيُصنع منها المستقبل توجد دون شكّ في

تطلّع الأفراد إلى أن يكونوا مختلفين وأفضل من العاديّين، وبذلك – ولذلك بالذّات مثل كلّ الآخرين. ستكون مسألة المرجعيّة الذاتيّة في المعنيين النظامي المعرفي systematisch، والنفسانيّ الموضوع المحوريّ للقرن العشرين. ولقد استطاع نيتشه أن يستبق النظريّات المعاصرة بإقراره بأنّ نظام المرجعيّة الذّاتيّة هو في الآن نفسه منظومة معرفة ذاتيّة ومنظومة امتداح ذاتيّ. وقد تمكّن بفضل رؤيته، أو بالأحرى بحدسه، أن يضمن لنفسه منذ ذلك الوقت شروط النجاح المزدوج الذي سيتحقّق له بعد موته: أن سجّل اسمه على قائمة الكتّاب الكلاسيكيّين الذين يكوّنون علامات مرجعيّة يُستند إليها في عمليّات النقد كما في مواقف القبول والإستحسان داخل المجال الثقافيّ العام؛ وهو ما يمثّل توفّقا في تحقيق الطموح إلى الخلود الذي طالما عبّر عنه. إلى جانب ذلك تمكّن من أن يفرض إسمه – عبر الطريق غير المباشرة لمتأوّليه الأوائل والمروّجين له – كعلامة مميّزة (ماركة) تضمن النجاح للمنتوجات غير المادّية، وكأفيونة نمط أدبيٍّ Life-Style-

Droge أو نمط مـعـيشـيّ way of life راق؛ ذلك الـتصـمـيـم النيتشويّ للفرديّة: نحن المفكّرين الأحرار! نحن الذين نحيا في خطر!

عـنـدمـا يَـخـبَـر الكـاتب نفسـه كـاتبـاً تـتكـوّن المعزوفـة الفخريةّ، وعندما يعلن صانع السوق عن ماركة يتكوّن الإشهار. لقد أطلق نيتشه اللغة من رباطاتها القديمة وأعاد صياغة تركيبتها بأن جعل المديح مرتبطًا بالإشهار. مجرّد أحمق، مجرّد شاعر، مجرّد مصنّف إشهار. إنّ عمليّة الربط هذه لوحدها تمكّن من فهم الطريقة التي ستسمح للمقاتل المستميت من أجل الثقافة العليا أن يغدو ذا تأثير في مجال الثقافة الجماهيريّة. لكن ليس هنالك من شكّ أنّ هذا الوجه الثاني لنجاح نيتشه، والغواية التي مارسها كعلامة مميّزة أو كنموذج أخلاقيّ ومنظومة مسلكيّة في مجال الفردانيّة قد حجبت إمكانيّات مستقبليّة أعمق فيما كانت تنجز تلك التأثيرات الآنيّة الأولى. ولأنّ ذلك النمط الحياتي النيتشويّ المتميّز سيظلّ، على مسافة من البعد عن إسم صاحبه، يشعّ بقوّة جاذبيّة لا تقاوم فإنّه استطاع

أثناء الثلث الأخير من القرن العشرين وفي ظلّ ظرف جديد تميّز بنهوض فردانيّة أكثر وضوحًا، بعد ماي ٦٨، أن ينهض من كبوته ويشفى من الكسور التي ألحقتها به النسخ المشوّهة التي صاغها له الكتبة الفاشيّون. كما أنّه ما من شكّ في أنّ نيتشه المؤلّف، حتّى في ذلك الظرف المحرج الذي عرفته كتاباته قد ظلّ مستحيل القبول بالنسبة للسياسة التجميعيةً لحركة القوميّة الإجتماعيّة، بل إنّ الماركة النيتشويّة وحدها وفي بعض المظاهر المجتزأة منها فقط هي التي كانت قابلة للإستنساخ داخل الثقافة الشعبويّة. ولكي نفهم هذا الأمر علينا أن نتنبّه لكون الفاشيّة في مظهرها الإجرائيّ ليست سوى تجسيد لاقتحام السلوكات الشعبويّة والإبتذال الفلكلوريّ للسياسة. وكما بيّن ذلك كليمنت غريبارغ منذ ١٩٣٩ بخصوص الحالة الكارثيّة أنذاك، فإنّ الإبتذال الفلكلوري هو اللغة الكونيّة لثقافة الغوغاء المنتصرة؛ إنّه يتأسّس على إنتاج محاكاة النجاح كمادّة مصنّعة. الشعبويّ والفلكلوريّ، في الثقافة كما في السياسة، هما ضرب من

الإجراء المختصر الذي يختصر الطريق باتّجاه تأسيس ذوق جماهيريّ معلن. إنّهما يكتفيان باستنساخ النجاحات قصد إحراز انتصارات أخرى عن طريق تلك النّسخ. وقد اعتمد هتلر كسياسي للشعبويّة والفلكلور خطّةً استراتيجية للنجاح تنبني على الربط بين القوميّة الشعبويّة والإستعراض العسكريّ بما من شأنه أن يضع النرجسيّة الجماهيريّة على أقصر السبل وأسهلها لبلوغ ذروة الهيجان. وفي هذا المضمار تلعب تقنيات الصوت المعدّة لإلهاب الحماس، والطقوس شبه العسكريّة في الفضاءات المفتوحة دورًا فعّالاً محدّدًا. في كلتا الحالتين يلقّن السكّان أنّهم الشّعب الذي ينادى به، وأنّهم يستمعون إلى ذاتهم منعكسة في الصوت الحماسيّ المهيّج. وبهذا المعنى فإنّ كلّ فاشية هي بالمقام الأوّل أثر نصّي؛ فهو من البداية نسخة ملفّقة، إذ ليس له من أصل، وإذا ما بدا بصفة ثانويّة في هيأة المتمرّد فإنّما يفعل ذلك من خلال انتفاضات المقصّ. إنّهم يعلمون دومًا لأيّة غاية وبأيّة كيفيّة يُحكمون المقصّ. ومن وجهة نظر طاقيّة يمكن

اعتبار الفاشيّة الحادثة الثقافية للإضطغان؛ تعريف يمكّن من فهم ما يبدو مستنكرًا وغير مقبول في قابليّة تصريف الإنفعالات اليساريّة في اتجاه يمينيّ وكذلك العكس. لأنّه طالما ظلّ الفضاء العموميّ يشتغل كمسرح للإضطغان فإنّ قابليّة النصوص للإغتصاب وإمكانيّة غواية الجمهور كسكتلةّس ستظلّ مضمونة. هكذا غدا بإمكان الماركة النيتشويّة إذًا أن تلعب دورًا في المجال السيمنطيقي لحملات الإشهار التي تقوم بها الحركة القوميّة الإجتماعيّة وذلك عندما تمّ تنقية نُسخها الملفّقة وفصل كلّ عناصر التنطّع الفرديّ والأحكام الطلائعيّة الأساسيّة ولم يُبق إلاّ على مواقف النزوع إلى الإرتقاء وما يرافقها من الديكور الخطابي المحارِب. لقد أحكم أتباع هتلر المقصّ في نيتشه ليلصقوا ما اقتطعوه ضمن إنجيل كليانيّ وذلك بعد أن كان مقصّ الأخت• قد أعدّ نسخة جاهزة -Ready

---

• لقد بذلت إليزابت نيتشه –فورستر كلّ ما في وسعها، ونيتشة بعد على قيد الحياة كي تستحوذ حركة القوميّين الإجتماعيّين على كتابات أخيها، وكان زوجها برنهارد فورستر الذي كان نيتشه يمقته ويبدي احتقارًا واضحًا تجاهه من العناصر النشطة في هذه الحركة أنذاك. كانت لنيتشة علاقة وطيدة بأخته التي كانت كثيرًا ما ترافقه لمدّة شهور في سفراته، وهي التي كانت ترتّب ميزانيّته وتهتمّ بعلاجه أيّام مرضه. لكنّها كانت بالمقابل وبخاصّة في السنوات الأخيرة من عمره تمارس عليه وصاية تكاد تكون كاملة: تتصرّف في كتاباته وتتحدّث وتشرف على العديد من شؤونه وترعاه في أيّام =

Made من ماركة نيتشويّة على المقاس. وإنّه لمن العار على الفلسفة الجامعيّة الألمانيّة لما بعد ١٩٣٣ أن تقوم هي أيضًا ومن موقعها الخاص بنفس العمل التقطيعيّ، وكذلك الأمر بالنسبة للمعادين لنيتشة الذين لم يتجاوزوا بعد، وإلى اليوم، الملف المؤذي لذلك التركيب الملفّق من القصاصات والمقتطعات – لكن إلى أيّ زمن ينبغي علينا أن نعود كيما نعثر على فلاسفة جامعيّين يتعاطون الفلسفة دون مقصّ؟ إنّ القوميين الإجتماعيّين كمراجعين حازمين في ما يخصّ كلّ ما يمكن أن يضمن لهم النجاح السياسي والإجتماعي لم يكن بوسعهم أن يحتفظوا من نيتشه إلاّ بنزر أقلّ بكثير ممّا احتفظ به جيفرسون من المسيح، ذلك أنّ معظم ما جاء في كتاباته لم يكن ليلائم منظومتهم القائمة على الكليشيه الشعبويّة؛ فهو مضادّ للقوميّة أكثر من اللزوم، لا ألمانيّ أكثر من اللزوم، لا نمطيّ أكثر من اللزوم، كاره لنزعات الإنتقام، مضادّ للتجميعيّة

=مرضه وتتحدّث باسمه، ضدّ رغبته وأحيانًا دون علم منه، متأوّلة ومحرّفة لأفكاره بما يتلاءم والأغراض السياسيّة لحركة القوميّين الإجتماعيّين. أنظر في هذا الشأن «إليزابيت فورستر نيتشه: صورة بيوغرافيّة «لـ كلاوس كوخ. من كتاب بعنوان: «أخوات لرجال شهيرين» ,Schwestem Beruehmter Maenner - Insel Taschenbuch Frankfurt am Main –(المترجم).

وللسلوكات العسكرِيّة، مناهض للهوس العقلانيّ أكثر من اللـزوم، معـاد أكثر من اللـزوم لمعـاداة السـاميـة، محتقر احتقارًا صارمًا لكلّ تجسيد لـ«الوله الإثني»، وأخيرًا ولكي لا نهمل الأمر الأكثر أهمّية في فكر نيتشه فهو غير ملائم البتّة لكلّ السياسات القائمة على الإضطغان اشتراكيّة كانت أم قوميّة، أو من نوع ذلك الشكل الملفّق لغايات متعدّدة: القوميّة الإشتراكيّة. إنّه بوسع كلّ من كانت له علاقة ما بكتابات نيتشه أن يدرك أنّه من غير الممكن أن توجد طريقة تجعل منه مثالا ومعْلما ألمانيًّا. لقد كان حادًّا قاطعا موقفه القائل بأنّ للألمان، الفائزين منهم وغير الفائزين، هاجساً دائماً يجعلهم لا يشعرون بالإرتياح إذا لم يعمدوا إلى الحطّ من شأن الآخرين. ثمّ ما هو بالنهاية الإنجاز الفلسفي- الأخلاقي لنيتشة إن لم يكن ذلك العمل الدؤوب من أجل التغلّب على ذلك النزوع إلى التبخيس؟ ومن استطاع مثل نيتشه أن يعبّر بوضوح عن ميل السياسات الشعبويّة إلى تحقير كلّ ما هو أجنبيّ والحطّ من شأنه، وذلك عندما استشفّ مبكّرًا نزعة «هوليغانيّة» في

صميم الفكر الفيلهيلمي؟ أكيد أنّ نيتشه معاد للمساواتيّة، ولكن ليس من أجل الإنخراط في نفس القضيّة مع الشعبويّين المتعطّشين للإنتقام – كما يحلو للفلاسفة الأخلاقانيّين الألمان ضعيفي البصر الذين لم تعد تقنعهم الفوارق أن يظلّوا يدّعون على الدّوام – بل من أجل صيانة الحريّة النابعة من الإرتقاء بالذّات من نمط الإستنفاذ الذي يهدّد الإنسان الأخير بمستقبل لا مستقبل له. هنالك وجهة نظر وحيدة يمكننا أن نقرّ بها لمبتخسي نيتشه والمحذّرين منه وهي: ألم يكن ينبغي عليه كمصمّم لـ«قدر» من نوع محدّد أن يطرح على نفسه أسئلة حول ضرورة إيجاد طريقة أنجع لحماية إنتاجه والإحتياط من عمليّات النسخ المشوّهة والتزوير؟ ألم يكن من الممكن تلافي التصاق الماركة عن اسم المؤلّف؟ أوَلمْ يكن بوسعه أن يرى أنّ ذلك الرهط الذي كان يرفضه ويحتقره هو بالذّات الذي سيكوّن فيما بعد حرفاءه المتملّقين؟ من الأكيد أنّ مثل هذه الأسئلة لم تغب عن ذهن نيتشه، تدلّ على ذلك، إضافة إلى مقولات زرادشت ذات الطابع النبوئي الكنائسيّ حول الطفيليّين

الذين يتغذّون من أنفس العظماء والنبلاء[٣٦]، بعض الرسائل والملاحظات المدوّنة التي يعبّر فيها عن التفكير بجديّة في الإنسحاب من مهمّته ككاتب وذلك بسبب الخشية التي كانت تحدثها فيه جسامة رؤاه الفلسفيّة. ولنفترض أنّه فعل ذلك فهل سيغدو خفيّا عن الناس ذلك السبب الذي جعله يستقيل من الكتابة؟ وبالتالي فإنّ النتيجة كانت ستظلّ تقريبًا هي ذاتها بالنهاية. لعلّ نيتشه، مثل كلّ الآخرين، كان يحضره الجواب عن مثل هذه التساؤلات: «أنا لا أحتاط لنفسي من المخادعين الغشّاشين، عليّ أن أكون دون حذر: ذلك هو ما أراده لي قدري.»[٣٧]

لكي نقدّر القيمة الخاصّة لرمية النرد النيتشويّة الكبرى المتمثّلة في جعل نفسه مصمّم اتجاه للفردانيّة، فإنّه يتحتّم علينا اللجوء إلى مقارنته بمشاريع بديلة أخرى. فبالنّسبة لمقولة ذلك العصر «لتكن ما أنت» وقرينتها «افعل ما تريده» لا يوجد سوى عدد قليل من الصياغات المتينة. وليس هناك بالنهاية من مزاحم، أو من نسخة

مقابلة لمشروع نيتشه سوى مؤلّف كان كاتب المعرفة المرحة قد نعته بالمناسبة بـ«كائن بديع العظمة»، دون أن يغفل أن يضيف أنّ الكاتب الفلسفيّ الأكثر عمقًا فكريًا خلال القرن التاسع عشر يظلّ إلى حدّ الآن أميركيًّا، وهو رالف فالدو إيمرسن. وفيما يُعرض التصميم النيتشويّ للحياة - ضمن - فرديّة - مبدعة - لذاتها تحت عنوان «العقل الحرّ»، يعرض إيمرسن إنتاجه تحت يافطة «اللانمطيّة». كان أروع نصّ من الكتابات الأولى لإيمرسن مهدى إلى نيتشه؛ القبس الذي قدّمت به الفلسفة الأميركيّة الدّليل على وجودها لأولئك المعاينين الأوائل المغمورين بالدّهشة. وليس من باب الصدفة أن يأتي ذلك النصّ تحت عنوان Self-Reliance ؛ نصّ نثري يبلغ بالكاد ثلاثين صفحة لا مثيل له في الكثافة التي لا تتقيّد بنظام محدّد، وفي إبداء استقلاليّة المقاربة الأميركيّة وإعلانه التنطّع على الإمتثال للتقنينات الأوروبيّة، بل كلّ التقنينات. فيه يتجسّد البرنامج المضادّ للخضوع الذي سيثبت نفسه على مدى المائة وخمسين سنة اللاحقة كلون مميّز للحريّة

الأميركيّة؛ لون سيظلّ مهيمنا إلى حدود السبعينيات من القرن العشرين؛ أي حتّى ذلك الوقت الذي عمدت فيه المؤسّسة الأكاديميّة الأميركيّة إلى وصفة استيراد النظريّات المازوخيّة الأوروبيّة.

في سنة ١٨٤١ والهجمة الفيضانيّة للنظريّة النقديّة critical theory ما تزال بعيدة يكتب إيمرسن:

«...أن تعتقد بأنّ ما هو صحيح بالنسبة لقلبك هو كذلك بالنسبة للبشر كلّهم، فتلك هي العبقريّة. حدّث بقناعاتك الخفيّة وستغدو كونيّة؛ ذلك أنّ الذي يعتمل في الباطن سيغدو حتما هو الظّاهر، وأنّ فكرتنا الأوّليّة ستعاد إلينا عبر أبواق القيامة... إنّ الآثار الفنيّة الكبرى لا تمنحنا من الدروس غير هذا؛ إنّها تعلّمنا أن نستمرّ في البقاء على انطباعاتنا العفويّة بثبات مرح فيما زعيق الأصوات كلّها يهتف في الجانب الآخر، وإلاّ فإنّ غريبًا سيأتي غدًا لينطق بذلك الذي كنّا طوال الوقت نفكّر به ونشعر به، وسنكون

عـنـدهـا مضـطـرّيـن لأن نمدّ أيديـنـا بـخـجـل لـنـتسلّم أفكارنـا من أيدي الآخرين.»

«لكنّ الله لايبتغي إيصال كلمته عن طريق الجبنـاء... كن على ثقة بنفسك؛ إنّ كلّ قلب يهتزّ على نغمة هذا الوتر ذي الحزم الفولاذيّ.»

«في كـلّ مـكـان تـبـدو المجتـمـعـات مـتـآمـرة عـلـى الإنسانيّة؛ كلٌّ على أفراده. إنّ المجتمع شركةِ ذات أسهم يقضي أعضاؤهـا، من أجل تـأمين الخبز اليوميّ لكل المساهمين، بضرورة التفريط في حريّة وثقافة أولئك الآكلين، والفضيلة المبجّلة لديهم هي مجاراة السائد، بينمـا الثقة بالنفس شناعة بالنسبة لها. إنّها غير مـولـعـة بـالحقـائق وبـالمبدعين، بل بـالأسمـاء والإستعمالات السائدة.»

«من يريد أن يكون إنسانًا عليه أن يكون لانمطيًّا. ومن يريد أن ينجز انتصارات خالدة عليه أن لا يدع نفسه يعاق بما يدعى فضيلة، بل أن يحقّق و يختبر إن كانت بالفعل فضيلة، فليس هنالك بالنهاية من

أمر أكثر قداسة من حرمة عقلك الخاصّ. تكلّم إذًا بحرّية أمام نفسك وستغدو لك كلمة مسموعة في العالم.»

«... لا بدّ لفضيلتك من حافة حادّة في مكان ما، وإلاّ فهي ليست بفضيلة. أمّا تعاليم الحقد فليكْرز لها، إذا ما عوت ونبحت، على أنّها تعويض عن تعاليم الحبّ... أودّ أن أخطّ على عارضة بابي: مزاج.... إنّه لا يمكننا أن نمضي اليوم كلّه في التوضيحات.»

«اترك نظريّتك وراءك كما ترك يوسف قميصه لدى العاهر، وفرّ.»

«... أن تكون عظيما يعني أن تغدو موضوع سوء فهم.... نمطيّتك لا تفسّر شيئًا. اعمل كفرد، وسيكون ذلك الذي أنجزته كفرد هو المجيب عنك في هذا اليوم.»

«... إنّ القرون تتآمر على الصحّة وسيادة الروح... والتاريخ يغدو وقاحة وإهانة إذا ما أراد أن يكون شيئًا آخر أكثر من تبرير بهيج أو محاكاة لوجودي

ومصيري.»

«... » إلى الفانين الثابتين على مواقفهم يهبُ الخالدون المقيمون في النعيم» يقول زرادشت.[٣٨]

أيّها السادة والسيّدات، يتمتّع إيمرسن بأسبقيّة زمنيّة على نيتشه، تضاف إليها أسبقيّة من جانب الوجهة النفسانيّة –السياسيّة. فبينما تبدو لانمطيّة إيمرسن كما لو أنّها جاءت لتتفتّق في المواجهة مع تيّار الثّبات المعارض لموجة نرجسيّة جماهيريّة ذات طابع مزدوج لكنّه ديمقراطيّ بالنهاية، كان ماركة زالعقل الحرّس النيتشويّ، في المقابل، عرضة للمحاكاة من قبل حركة خائبين متعطّشة للفوز. إنّ الفاشيّة، ماضيا وحاضرا، لايمكن لها أن تكون سياسيًّا سوى انتفاضة خاسرين مشحونين يسعون إلى تغيير قوانين اللعبة كي يتمكّنوا من إيجاد فسحة زمنيّة استثنائيّة يظهرون خلالها في هيأة المنتصر. سيقع احتواء الماركة النيتشويّة إذًا من قبل الخائبين وكتبة الخائبين لأنّها تعد بإسنادهم علامة المنتصرين.

وبما أنّ الوهم الطيفيّ لم يتسنَ له الدوام، ولا كان بإمكانه أن يدوم، فإنّ مخطّط إيمرسن قد حقّق في حقل الماركات انتصاره على مشروع نيتشه. لذلك نرى أنّ أغلب اللانمطيّين اليوم من غير المنتمين للعقل الحرّ. فمعدّل أفكارنا وحساسياتنا هي في مجملها الآن (من صنع أميركي) made in USA وليست made in Sils-Maria*.

كيما يتسنّى لنا الحصول على أكثر من المعلومات حول هذا الإختلاف علينا بالعودة إلى نيتشه المؤلف مرّة أخرى. عندما عاش نيتشه التماسّ بين المديح الذّاتي والخطاب الإنجيلي، وذلك خلال إنجازه للأجزاء الثلاثة الأولى من هكذا حدّث زرادشت، حدثت نقلة على مفهومه الـ «ديونيزي» الذي تحوّل إلى: «عمل جليل»**. في هذه الفصول المثيرة قام نيتشه، كما لم يفعل من قبل ولامن بعد، بتعديل للإستعمال اللغويّ بحيث طوّر خطابًا هو عبارة عن استعراض ذاتيّ صرف للنشوة الخلاّقة. إلاّ أنّه مع ذلك لم يكن من الصواب أن يضفي على «عمله الجليل»

---

* مكان إقامة نيتشه بإيطاليا حيث حرّر كتاب «هكذا تكلّم زرادشت».
** أنظر الهامش رقم ٢٧.

نعت الـ «ديونيزي» فقط. فالذي برز إلى العيان من فوراته التعبيريّة كان بالأحرى إشعاعات أبولونيّة وقع داخلها تلافي عمل التفتيت الديونيزي. وليس من سبيل الصّدفة أن تلعب الشمس– الكوكب الأبولوني– في إنجيل زرادشت دور الكينونة المثلى لـdes vorbildlichen seienden وأن يتّخذ النبيّ الجديد الشمس نموذجا لنزوعه إلى الإكتمال. «نورًا يغدو كلّ ما أصوغه»! الشموس وحدها هي التي بوسعها أن تتحدّث عن نفسها بمثل هذا الكلام. كلام ينطبق في المقام الأوّل على أفعالها ومقدراتها الأكثر أهميّة: استعدادها لإنفاق نفسها دون قيد ولا شرط، وقدرتها على الغروب دون ندم. وبالنظر إلى هاتين الخاصّيتين ستظل تعاليم الكتابات المتأخّرة لنيتشة إحالة متكرّرة على محاكاة الشمس .imitatio solis الشمس وحدها تظلّ بطوليّة حتّى الغروب وسخيّة حتّى الإحتراق الكلّيّ. «إنّ البطولة هي الإرادة الطوعيّة للتّلف الذاتي المطلق» يكتب نيتشه في هذ المضمار لصديقته الروسيّة الشابّة•. الشموس وحدها

• في فصل «النقيه» يقول زرادشت مخاطبًا حيواناته: «والآن أموت وأضمحلّ»... «سأعود مع هذه الشمس، مع هذه الأرض، مع هذا الصقر ومع هذه الحيّة»... «لقد قلت كلامي، وها أنا أتحطّم بكلامي: ذلك هو قدري الأبديّ: مبشّرًا أمضي إلى حتفي.» – (المترجم)

بإمكانها أن تكون مبذِّرة بهذا القدر الذي يجعل الورثة العاقلين يعمدون إلى تحجير أملاكها عليها، إذا ما تسنّى لهؤلاء أن يفرضوا تصوّراتهم الإقتصاديّة. الشمس وحدها هي التي تكوّن الفضيلة الواهبة طبيعتها الأصليّة، ووحدها الشموس لا تحفل بتناظر الأخذ والعطاء، وهي وحدها التي تبدو متعالية على منزلتي العارِض والمعارِض. ووحدها الشموس لا تقرأ التعليقات النقديّة. بخصوص هذه النقطة الأخيرة، فإنّ التحوّل الشمسي لنيتشة لم يكتب له أن يتمّ على وجه مكتمل، وكذلك في عديد من الوجوه الأخرى، هنالك ما يبرّر الظنّ بأنّ شمس نيتشه تحمل في صلبها قدرًا من الملامح البشريّة أكثر بكثير ممّا تقرّ به الإستعارة. يبدأ الأمر في المخاطبة الأولى لزرادشت مع الشمس: «أيّها الكوكب العظيم! أيّ سعادة ستكون لك لو لم يكن لديك هؤلاء الذين تنيرهم؟» «...(إنّنا) نتسلّم فيضك ونباركك من أجل ذلك[٢٩]. و تتصاعد الوتيرة خلال ابتهال زرادشت إلى إرادته:

«أن أكون جاهزًا قد بلغت النضج في الظهيرة العظمى... جاهزًا لاحتضان نفسي وإراداتي الأكثر

خفاءَ: قوسًا يضطرم شوقًا إلى سهمه، وسهمًا متشوّقًا إلى كوكبه –كوكب جاهز قد بلغ النضج في ظهيرته، ملتهب، مخترَق، تهزّه الغبطة بالشموس – السهام المبيدة، بل الشمسَ ذاتَها وإرادة شمسيّة لا يثنى لها عزم...»

يمكن للمرء أن يتعرّف من خلال هذه الإستعمالات، أنّ الكاتب لا يبدي تعاطفًا ما، لا مع الهلوسات الفلسفيّة التي تعلن باسم «الذّات» الهروب داخل الهويّة، ولا مع فلسفة الحوار التي تتحاور الذاتات فيها وجها لوجه، أو تتراشق بتهم اللامبالاة وصرف النظر. إنّ اهتمامات نيتشه تتوجّه إلى نظريّةٍ للمخترِق (بالكسر) المخترَق (بالفتح): إنّها أخلاقيّة Ethik التدفّق والذوبان في الآخر، منطق الإمتصاص والإشعاع مجدّدًا بالأشعّة الممتصّة. إنّه لا يعرف التخاطب المتناظر والمساومة والتوسط بين الإبتذال والإبتذال، بل علاقات ما بين شموس والإتصال الإشعاعي بين كوكب وكوكب، والإقتحام الذي يصل الأحشاء بالأحشاء، والإحبال والإحتبال. «في بطن الحوت سأكون المبشّر بالحياة»[40]. هو لا تهمّه الآراء بل الإشعاعات الفيضيّة. إنّه من الوجهة الذهنيّة مزدوج الجنس، كوكب

يتحرّق إلى أن يكون مخترَقًا (بفتح)، وشمسًا تخترِق وستنتصر». أنا أُختَرَق فأنا إذًا موجود، وأنا أشعّ في داخلك فأنت إذًا موجود. إنّه، بإضفاء طابع جنسيّ على الشمس يقلب اتجاه المحاكاة ويخضع الشمس لتصير محاكية للبشر، شريطة أن يكون الإنسان مؤلّفًا؛ أي كائننا فردًا مخترقًا باللغة وبالموسيقى، وصوتًا يبحث عن آذان ويوجد آذانًا.

من هذا المنطلق سيغدو بالإمكان إجراء عمليّة قلب تأويلي على الدلالات البعيدة للغة النقديّة داخل الأثر النيتشويّ. فإذا ما أقرّت الأنجلة النيتشويّة بشرعيّة المديح الذاتي، فإنّها في الآن ذاته قد سلّطت على الذّات الممدوحة إضاءة مغايرة. لذلك فإنّ الإثبات القائل بأنّ شعريّة نيتشه قد أزاحت قواعد المديح الذاتي غير المباشر وجعلت المديح الذاتي معوّضا عن مديح الآخرين، هذا الإثبات لا يعرض للنظر سوى الطبقة السطحية لهذا الإنقلاب. وفي العمق سيظلّ الخطاب الإثباتي ملزمًا تجاه مديح الآخر – بلى، إنّه يمتدح «الآخر المغاير؛ احتفاء لانظير له في السابق. إلاّ إنّه

ينذُر نفسه لغيريّة هي أكثر من أخريّة الشخص الآخر. إنّه (الخطاب) يسلّم نفسه لغيريّة تمرّ عبر المتكلّم كما لو كانت تمرّ عبر ممرّ مرجع للصّدى، غيريّة تخترق المتكلّم وتمكّنه من أن يكون هو - غيريّة ثقافته ولغته ومربّيه، وأمراضه وتسمّماته، وغواياته، وأصدقائه بل وحتّى ذاته التي تسعى لإحكام قبضتها على شتّى الظاهرات. إنّه يحتفي بحشد من الغيريّات تدعى العالم. إنّ كلّ ما يعرضه نيتشه للعيان يتحوّل إلى فخر - مديح للغير «...أنا ميّت في هيأة أبي، وفي هيأة أمّي ما زلت أحيا»[٤١]. هكذا ينبغي البحث عن نكران الذات لدى نيتشه في ما تحت المستوى الظاهر للمديح الذّاتي؛ في انفتاحه على الغيريّة الداخليّة، في وساطته المفرطة، وفي قابليّة التنازل المتأتّية عن حبّ الإكتشاف، وفي بلاهته التي لا تسدّ ثغراتها أبدًا. لذلك فإنّ المؤلّف ليس مجرّد شمس، بل جسمًا يرنّ بالصدى / محدثًا للرنين. «في هيأة أمّي ما زلت أتكلّم، وفي هيأة أصدقائي المستقبليّين سيظلّ يُنصَت إليّ». من الممكن إذًا اعتبار نيتشه مكتشف النرجسيّ- الغيريّة: بمعنى أنّ ما يثبته في

ذاته هي بالنهاية تلك الغيريّات التي تتجمّع في داخله ومن أجله كما لو كانت تتجمّع من أجل صياغة مقطوعة موسيقيّة تخترقه وتطربه وتعذّبه وما تفتأ تفاجئه. فمن دون مفاجأة ما كان للعالم أن يكون سوى مجرّد خطإ. لا بدّ من وجود شيء في العالم أسرع من الأسباب والعلل. وما تمّ مناقشته تحت عنوان «إرادة القوّة» كان التوطئة لدرس في الموسيقى أكثر منه نظريّة في التلحين الصرف. لقد كانت نظريّة الإرادة طريقا ملتوية باتجاه نظريّة أكثر اكتمالا لم تكتب بعد؛ أي نقد العقل المدائحي الذي يصوّر العالم كنقيض وعبء.

قد يحقّ لنا أن نسمح لأنفسنا بأن نلاحظ أنّ نيتشه قد بلغ الحدّ الأقصى ككاتب في اللغة الألمانيّة والنظام اللغويّ الأوروبيّ. وهو في بلوغه الأوج كمفكّر – مغنٍّ غدا بإمكانه أن يخبر نفسه كصوت داخل معزوفة الكون؛ عنصر ينجز ذاته داخل مواقع الإثبات الذّاتي داخل الأفراد. ولو أنّه كان هو الذي عمد إلى تجميع التخطيطات الأوّليّة لنظريّته عن الإرادة في مؤلّف ونشرها، لحقّ لنا أن نقول أنّه كفيلسوف

قد وقع ضحيّة للتسرّع. لكنّنا نعلم أنّ رهطًا من الناهبين والإنتفاعيّين والمحثّين على العجلة هم الذين أخذوا على عاتقهم تلك المهمّة محوّلين اسم الكاتب إلى علامة (ماركة) رغمًا عن إرادة المؤلّف الذي كانت أبحاثه غالبا ما تقوده إلى نتيجة تلغي تلك التعاليم النظريّة المزعومة؛ النتيجة القائلة بأن ليس هناك من إرادة، وبالتالي فليس هناك من إرادة القوّة، وما الإرادة إلاّ صورة لفظيّة، وليس هناك في الحقيقة سوى تعدّد طاقات، وخطابات، وتصرّفات، وتوليفاتها كلّها تحت قيادة أنا تستجيب إثباتيًا لذاتها، تندثر وتتحوّل. وهنا بالذّات يناقض الكاتب علامته (الماركة) ومقولاته في هذا المضمار واضحة بيّنة. ولعلّه ليس لدينا في هذه الذكرى المئويّة لوفاته أفضل من أن نعيد ذكر هذه المقولات على أمل أن لا يكون بوسع أيّة كتابة حاليّة أن تقتطعها وتقصها:

«على المرء أن يحافظ على سلامة الوجه السطحي للوعي بكلّيته – لأنّ الوعي سطح – وحمايته من تدخّل أيّ من ضرورات الوجوب الكبرى. ولنكن

حـذريـن حـتـى مـن كلّ الـكـلـمـات الـكـبيرة، ومـن كلّ المواقف الكبرى!... لا أذكر أنّني أجهدت نفسي من أجل شيء ما؛ وليس هناك من أثر لصراع ما في حياتي فأنا نقيض لكلّ ما يحمل طابعًا بطوليًا، وأنا لا أعرف عن تجربةٍ ما الذي تعنيه أشياء مثل «إرادة» شيء ما، و«الطموح» إلى شيء ما، والتعلّق بـ«هدف» أو بـ«رغبة» ما. وفي هذه اللحظة أيضًا أجول بنظري في مستقبلي – مستقبل رحب – كالناظر إلى بحر هادئ ساكن: لا رغبة ترسم تموّجاتها على سطحه. وإنّني لا أرغب البتّة في أن تكون الأشياء على غير ما هي عليه، كما لا أريد أن أكون غير ما أنا عليه. لكنّني هكذا عشت دومًا.»[٤٢]

هذه السكينة التي يتمتّع بها الكاتب تحيل على سكينة زرادشت في الظهيرة: التهليل الهادئ المطمئنّ فوق أرض بلغت الإكتمال:

«مثل سفينة متعبة راسية في الخليج الأكثر هدوءاً أستريح الآن قريبًا من الأرض، وفيًّا، آمنًا، منتظرًا،

مشدودًا إليها بخيط رفيع.

يا للسعادة! يا للسعادة! أتريدين الغناء فعلاً يا روحي؟ وأنت تضطجعين العشب! لكنّها ساعة الغبطة السريّة حيث لا يعزف أيّ راع على شبّابته.

تورّعي! فالظهيرة المتّقدة ترقد على المروج! لاتغنّي! اصمتي! فالعالم قد بلغ الإكتمال.»[٤٣]

هنا يدعو الكاتب نفسه إلى الكفّ عن كونه كاتبًا. فلحظة يغدو العالم بكلّيته في هجعة لا يحقّ إيقاظه منها لا يعود هناك مكان لأيّ مؤلّف. فلندعه إذًا في ظهيرته القديمة. وعلينا أن نتصوّر الكاتب المستقيل إنسانًا سعيدًا.

الهوامش

1- *Der Antichrist*, No 16, in Friedrich Nietzsche, *Sämtliche Werke.* Kritische Studienausgabe (KSA), Band 6, S 272

٢- (هكذا تكلّم زرادشت، لجزء الثالث؛ النقيه) Also sprach Zarathustra III, Der Genesende, KSA 4, S 272

3- Ottfrid von Weissenberg, *Evangelienbuch*, Auswahl, Althochdeutsch-Neuhochdeutsch, herausgegeben, übersetzt und kommentiert von Gisela Vollmann-Profe, Stuttgart 1987, S. 37

4- Widmung an Liutbert, Erzbischof von Mainz, a.a. O., S. 19-21

5- The Jefferson Bibel. With an Introduction by F. Forrester Church and an Afterword by Jaroslav Pelican, Boston 1989, S. 17, Übersetzung von P. Sl.

٦- المصدر السابق؛ ص ٢٨

7- *The gospel According to Tolstoy*, edited and translated by David Patterson, Tuscaloosa und London 1992

٨- نفس المصدر؛ ص ٣٠

9- Friedrich Nietzsche, Sämtliche Briefe, Kritische Studienausgabe, Band 6

١٠- نفس المصدر؛ ص ٣٦٣

١١- نفس المصدر؛ ص ٣٨٠

١٢- نفس المصدر؛ ص ٣٩٧

13- F.N., *Der Antichrist*, No. 45

14- F.N. *Sämtliche Briefe*, a.a. O., S. 497

١٥- نفس المصدر؛ ص ٥٠٥

١٦- نفس المصدر؛ ص٥٢٥

17- F.N., *Ecce homo*, Vorwort, S. 4

18- *Sämtliche Briefe*, رسالة إلى أوفرباك بتاريخ ١٠ فبراير ١٨٨٣، في:
Band 6, a.a. O.,326

19-Sämtliche Werke, KSA, Band 6, S. 355

٢٠- نفس المصدر؛ ص ٣٦٦

21- Eugen Rosenstock-Huessy, *Die Sprache des Menschengeschlechts. Eine leibhaftige Grammatik in vier Teilen*, Zweite Band, Heidelberg 1964, S.897

٢٢- أنظر على سبيل المقارنة:

Rudolf Bilz, *Der Vagus-Tod. Eine antropologische Eröterung über die Situation der Ausweglosigkeit, in: Die unbewältigte Vergangenheit des Menschengeschlechtes. Beiträge zu einer Paläontropologie*, Frankfurt 1967, S. 242

٢٣- الرسائل الكاملة: - F.N., *Sämtliche Briefe*, Band 6., a. a. O., S. 490

24- F.N., *Ecce homo*, KSA 6, S. 305

٢٥- نفس المصدر ص ٣٤٠

٢٦- نفس المصدر؛ ص ٢٥٩

٢٧- نفس المصدر؛ ص ٣٤٣

٢٨- نفس المصدر؛ ص ٣٦٤

٢٩- نفس المصدر؛ ص ٢٩٦

٣٠- نفس المصدر؛ ص ٣٦٥

31- F.N., *Ecce homo* KSA.,6. S., 302

٣٢- نفس المصدر؛ ص ٢٧٤

٣٣- "هكذا تكلّم زرادشت" ؛ الجزء الرابع، "الشحّاذ الطوعيّ: "..وأنّ الهبة الجيّدة فنّ؛ وهي البراعة الأخيرة والأكثر مكرًا في فنّ الطيبة. "(المترجم).

34- F.N., *Ecce homo*, KSA S. 353

35- Zum Konzept der Insulierung als anthropogonisher Mechanismus vgl. Dieter Clässens, *Das Konkrete und das Abstrakte. Soziologische Skizzen zur Anthropologie*, Frankfurt 1980, S. 60-92

٣٦- "هكذا تكلّم زرادشت" الجزء الثالث؛ الوصايا القديمة والوصايا الجديدة - ١٩: "في موقع الضعف من الأقوياء، وفي موقع اللين من النبلاء يبني الطفيليّ عشّه المقرف"... "ما هي أرفع فئة، وما هي أحطّ فئة من بين الأنواع كلّها؟ الطفيليّ هو أحطّ فئة، لكنّ أرقى فئة وأرفعها هي التي يتغذّى منها أغلب الطفيليّين. فالنفس التي تمتلك السلّم الأطول والذي يقدر أن ينزل إلى أعمق الأغوار، كيف لها أن لا تكون موطنًا لأكثر ما يمكن من الطفيليّين؟" (المترجم)

37- F.N., *Also sprach Zarathustra* IV, Der Zauberer 2, KSA 4, S. 318

38- Ralf Waldo Emerson, *Essays*. Erste reihe, ins Deutsche übertragen und herausgegebenvon Harald Kiczka, Zurich 1983, S. 42-56, Übersetzung stellenweise modifiziert.

39- F.N., *Also sprach Zarathustra*, KSA 4, S.11

- أنظر أيضا فصل "الساحر" حيث يقول: "من يدفئني، من يحبّني بعد؟ / ناولوني أيدٍ حارّةً! / ناولونيّ مدافئ للقلب! / مسجّى أراني، تقضّني الرعدة / مثل محتضر تدلك قدماه الباردتان."

40- F.N., *Nachgelassene Schriften*. KSA 10 S. 428

41- F.N., *Ecce homo*, KSA 6, S. 264

٤٢- نفس المصدر؛ ص ٢٩٥

43- F.N., *Also sprach Zarathustra*, KSA 4, Mittags, S. 343

المحتوى

هذا الكتاب

كيف يمكن الحديث عن فريدرش نيتشه - اليوم، في عام ألفين، وفي الذكرى المئوية لوفاته الجسدية التي أفتتحت بها الألفيّة الأولى لتأريخ جديد كان يعتقد أنه سيبدأ العمل به انطلاقاً منه هو؟ هل ينبغي علينا أن نقول بأنّه يمْثُل الآن أمام أعيننا معذّباً وعظيماً هو أيضاً، تماماً مثل ذلك القرن الذي انتمى إليه بكلّ سنوات عمره، ومنه غادر الحياة باتجاه الخلود الذي يكلل الكتّاب؟ هل ينبغي علينا أن نجاريه في حكمه القائل بأنّه لم يكن إنساناً، بل عبوة ديناميت؟

